من ملف القصة القصيرة في المغرب

علبة سردين تضيء خلاء الأبديّة

إسماعيل غزالي
قاص من المغرب

قناصٌ غريبٌ من جاء بها إلى هذه المفازة أول مرة، وكانت المرة الأخيرة التي شوهد فيها. تبرع بها لأحد رجال جبل الضباب في تخوم الخلاء. وكانت هدية له تثمينا لما أبداه من بسالة ودهاء في رحلة الصيد. حيث كان دليله في تلك الأحراش وخارطة طريقه إلى الوحيش في تلك الفلول الغائرة.
أهداها الرجل بدوره إلى فتاة من قبيلة غير قبيلته وكان قلبه مدنفا مغرما بها حد الوله وأهدتها هي لرجل من قبيلة غير قبيلتها وكان قلبها مدنفا مغرما به حد الجنون.
هذا الرجل الأخير سيهتك عرضها ويزيل عنها غشاءها ذات مساء وهو يستعين بها لاستحلاء مذاق زجاجة خمر رخيصة مُرّة. ولأن غشاءها كان حادا تماما فقد جرحه في أحد أصابعه ونزَّ منه الدم الذي ضرج حجرا على سفح قدميه. بإحدى قدميه هذه ركلها بعد أن أفرغها عن آخرها وكانت مطعمة بمرق طماطم وليست زيتية نباتية.
أحد أطفال المدارس كان مارا مع أخته ذات صباح من المكان إلى مدرستهما النائية فيما وراء جبل الضباب، عثر عليها فارغة وأخذ يتهجى الأرقام والعناوين والمعلومات المكتوبة على حواشيها وفي أسفلها:
سمك إسقمري بالطماطم
يستهلك قبل 18-10- 1975
بينما أخته تثير انتباهه إلى الدم المراق على الحجر.
- أراهن أنه دم قبرة. قالت له.
- وما أدراك أنه ليس دم بكارة افتُضّت البارحة؟!؟ قال لها نكاية ثم دسّها في محفظته وواصل الطريق وأخته بخطى حثيثة في طلب العلم صوب المدرسة الأبعد من الصين.
عند رجوعه إلى قريته مساء صنع منها شاحنة وجعل لها عجلات من السلك الذي يلفف مصطبات التبن وحشر فيها كل فلاحي قريته المصنوعين من الطين وسافر بهم إلى سوق المدينة الأبعد من مدرسته أضعاف المرات.
فصلها عن عجلات السلك راعي ضأنٍ مع الفجر وذهب بها إلى الوادي الفسيح وقد جعل منها وعاء لشرب شايه المعسل وأيضا لمورد ماء العين.
سها عنها باله في الظهيرة وكان قد سارع إلى لمِّ شتاتِ القطيع إثر عاصفة رعدية وهرع ورَاء خرفانه بغرض الاحتماء في مغارة عند سفح جبل الضباب.
بانهمار المطر الشرس طفت العلبةُ في المياه التي سحبتها بعيدا مع تيار الواد الذي تشكل لتوه من رذاذ العاصفة.
غمرها الطين لزمن ليس بالقصير حتى حفرت عنها امرأة عجوز وكانت تقتلع البصل البري من أجل أن تبيعه في سوق المدينة النائية. البصل البري الذي يبتاعه منها تجار صغار ليبيعوه بدورهم إلى شركة مجهولة لصنع الصابون.
نفضت عنها الطين وغسلتها بالماء ثم ألقت بها خارج الأخدود الآسن.
بعدها بأيام وشهور زحزحتها الرياح وتقاذفتها أقدام المواشي والبهائم حتى استقرت على قارعة طريق.
امتدت إليها يد مشرد عابر للمكان وفصل عنها غشاءها الحاد ونحر به دجاجة سرقها لتوه من ضاحية غير بعيدة ولم يأبه للصدأ الذي يعرشها وسارع بصنع أثافي من حجر أبيض وأشعلِ نارا فيها وحين أجمرت شرع في شيِّها.
ذات صباح تشممها كلب أجرب وحملها بفمه جهة صبار ثم رفع رجله الخلفية وتبول عليها.
في نفس الصباح التقط صاحب الكلب الأجرب غشاءها الذي فصله عنها المشرد، لص الدجاجة وصار به إلى باب زريبته ثم دقه بمسامير ليلحم بين لوحين في باب الخشب.
انصرم على ذلك أكثر من يوم وشهر ثم طالتها يد بنت صاحب الكلب الأجرب ذات عشية وملأتها بمسحوق للغسيل أعطته لصديقة لها على الصهريج.
بعد أن انتهت صديقتها من غسيل الأسرة ألقت بالعلبة داخل الصهريج.
الصهريج الذي أتاه بعض الحصادين مساء للاستحمام فداس أحدهم على العلبة في قعر المياه وصرخ من ألم الجرح الذي أحدثه ذلك في أخمص قدمه. فحص الأمر وفصل حاشية العلبة اللصيقة بقدمه ثم ألقى بها بعيداً وهو يلعن:
- يا بنت الكلب.
في اليوم الموالي عثر عليها أطفال جاؤوا مع أمهاتهم لدق الصوف على حواشي الصهريج وجعلوا منها كرة تقاذفوها على طول النهار وانفضوا عنها مع أفول الشمس.
أحد هؤلاء الأطفال حملها في جرابه ذات فجر وهو يركب في العربة التي يسحبها جرار مهترئ صوب سوق المدينة النائية.
تعطل الجرار الذي طفق يسعل على سفح جبل الضباب ولم يقدر للطفل زيارة المدينة فأخرج العلبة ورمى بها جهة الجبل كما لو كانت السبب اللعين في عدم اكتمال الرحلة.
ظلت لشهور طوال على سفح جبل الضباب تلمع في قيظ الظهائر كما لو كانت تضيء خلاء الأبدية حتى عثر عليها الرجل الأول الذي أهديت له من سنتين ونيف. تأملها بإمعان وقد عرش الصدأ أغلب حواشيها ولم يبق من كتابتها وأرقامها إلا:
سمٍ.. قم.. طم
تذكّر أنَّ التي أحبها تزوجت شهر 7 أي يوليوز وكان قد أهدى إليها علبة سمك من نوع الإسقمري كهذه من سنتين أو ثلاث، تلك التي أهداه إياها القناص الغريب الذي لم يزر جبل الضباب إلا مرة واحدة.
رسم ابتسامة وشرع في دق العلبة بحجر على حجر حتى جعل منها كرة صغيرة بخرم أثبت فيه خيط صنارة رفيع.
فالرجل ارتد عن حب القنص أو مصاحبة القناصين بالأحرى وتحول إلى اعتناق حب آخر هو صيد السمك.

> ظلت لشهور طوال على سفح جبل الضباب تلمع في قيظ الظهائر كما لو كانت تضيء خلاء الأبدية حتى عثر عليها الرجل الأول الذي أهديت له من سنتين ونيف

زيارة

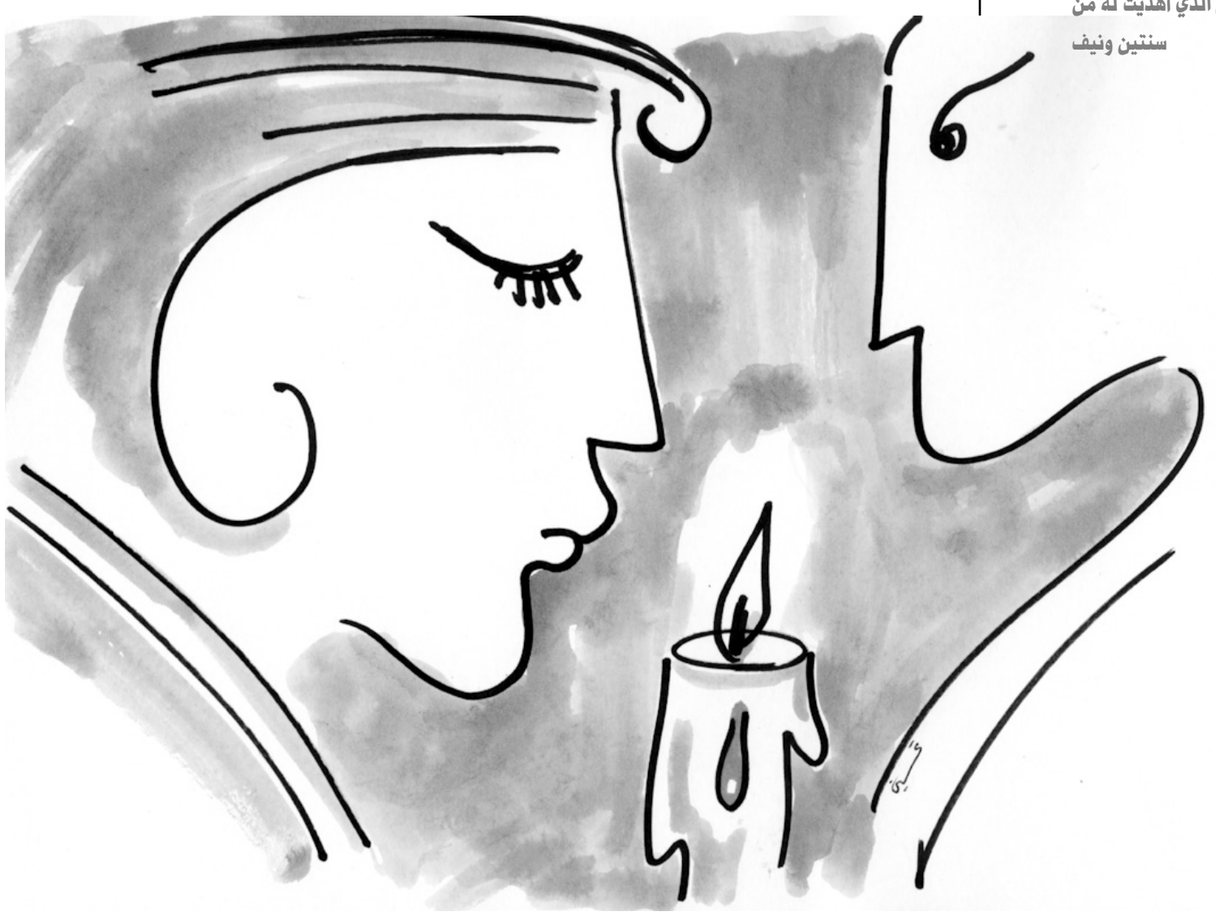

حافظ الحفيضي
قاص من المغرب

بثديها العاري كالثلج ترجته، وبحق الحليب الذي أرضعته حولين كاملين استرحمته كي يكف عن ندواته واجتماعاته التي لا تنتهي، وتجلب لها صداع الرأس ولا تعفيها من كلام الناس، لكنه لا يزداد إلا عنادا.
تقول له باكية أحيانا: إن حبل "المخزن" طويل وذراعه أطول، لن يستطيع ليها مهما اجتمع برفاقه ومهما خطط وإياهم لنصرة العدالة وهزم العطالة.
تقول إن النهر مهما تقوى يبتلعه البحر بكل سهولة. فيقسم لها انه يحبها وأيضا يحب عمله الذي لن يتخلى عنه حتى لو وضعوا الشمس على يمينه و القمر على يساره، حتى لو القوا به في الظلام الرهيب مع الصراصير.
تتوسل بكل ما أوتيت من ضعف، وتستعطفه كي يؤجل كل هذا إلى أن تموت، فهي لا تريد حياة بدونه، وليست لها الشجاعة كي تتحمل تقليم جفونه و نزع أسنانه. يمسح دموعها ويقبل رأسها ويشرح لها انه ارتبط بعمله ربطة" زغبية".
.... تحمل قفة فيها سكر وبن وبعض الأكل، وتقف في طابور طويل، تلج عبر الأبواب الحديدية العملاقة، وتقف في الردهة تنتظر.
بينهما حاجز معدتي، شباك سميك يحجب الرؤية الواضحة، فلا يبدو لها إلا طيفا.
توصيه خيرا بنفسه، لكنها لا تستطيع إخراج ثديها كي تستحلفه ثانية بحق" البزولة". فالمكان ممتلئ بالزوار.
يتبادلان الكلام مرة والهمس مرة أخرى ، تودعه مكرهة ملبية صفير الحارس .
كلماته لازالت ترن في أذنيها : لا تنسي علبة السجائر في الزيارة القادمة.

على أعتاب المكاشفة

مصطفى لغتيري
قاص من المغرب

حين حط الرحال بالمدينة، لم يتباطأ في التوجه نحو الآثار المحاذية لها. شغف بالأبنية القديمة اكتسحه من حيث لا يدري. فإلى عهد قريب، أبدا لم يحفل بوجودها. لم تكن - بالنسبة له - سوى حجارة صماء لامعنى لها، بل هي تافهة وزائدة عن اللزوم. في المدة الأخيرة، ونتيجة لعملية كميائية ما، حدثت في دواخله، لمس ميلا غامضا نحو هذه المعالم الأثرية. نظرته نحوها مافتئت تتغير. شيئا فشيئا استبد به عشقها، فانبثق له معنى من ثناياها. هكذا، أصبح كلما زار إحداها، أصاخ السمع برهافة، ليلتقط ذبذباتها الصامتة. حينها تنكشف له أسرار من ماض، يأبى أن يظل طي الكتمان. لايدري كيف حدث ذلك؟ فقط، هو متأكد، أنه بشكل ما نطق الحجر، تلقف بَوْحَهُ، فانتسجت علاقة حميمية بينهما. لم يكن بد - حينئذ - من أن يفقد حياده نحو الآثار، بشتى أنواعها.
حين أشرف على البقايا المتناثرة، لاحت له غافية في رحاب التلال. هبت على سحنته بعض من نسائمها، فاختلج الفرح في أعماقه. كان حريصا أن يكون المكان خاليا من البشر، فاختار اللقاء قبيل الغروب. الشمس أضحت برتقالة كبيرة معلقة في الفراغ، ظلال كابية تنتشر على امتداد البصر، تمازجها حمرة أرجوانية، تكلل ذرى النجود. وتستلقي في بعض الفجاج والفجوات. شيء من الرهبة داهمه، وهو يطأ أرض المدينة المنسية. السواري المتبقية والخلفية - من ورائها - تقدمان نفسيهما لوحةً لا أجمل منها. طفق يخطر بين الجدران والأعمدة، يتطلع في الفجوات، يترصد بقايا الأرصفة، يستحضر أقداما بلا حصر، من الزمن الغابر، وطأت هذا المكان.
بعد لحظات من التجوال، اختار موقعا مناسبا، يسعفه في احتضان المشهد، كل المشهد بعينيه المتعطشتين. أبدا لم يكتف بالنظرة العامة، الشاملة. التقط بصره أدق التفاصيل. الخطوط الدقيقة المنتشرة عبر الأبنية، أنواع الحجارة وأشكالها، تنوع هندستها. الأقواس الدارس أكثرها. كل ذلك أشعره بانتشاء لايقارن. حينها فقط، أحس أنه على أعتاب المكاشفة. هسهسة الريح وطدت لديه اليقين، بأنه حثيثا يدنو من مبتغاه. مدد أطرافه في ارتخاء تام. الخدر أخذ يتسلل إلى كيانه، لم يقاومه، بل تماهى معه إلى أقصى الحدود. فجأة لاحت له أطياف ملتبسة، تدريجيا راحت تحتل المكان من حوله، لم يرعبه ذلك، بل فاجأه. برباطة جأش حافظ على هدوئه. فقط اكتفى باختلاس النظر، إحساس قوي تبرعم داخله، بأن أي نأمة قد تطيح بكل شيء. ابتسامة خفرة احتلت شفتيه. هاهو ذا الوعد السري يتحقق من جديد. الآثار تكشف له أسرارها دون مواربة. بمرور الزمن أخذت ملامح الأطياف تتضح، البنايات المهدمة تكتسب أجزاءها الضائعة، والأقواس في أتم اكتمالها، إنها في أبهى عنفوانها. الجدران، كل الجدران تنتصب قائمة. كأنها بنيت منذ زمن قريب. طازجة لم تزل، تفوح طراوة وبأسا. هاهي الصور تتدفق جلية. أول ما ميز منها حراسا. على رؤوسهم خودات صقيلة. يمتشقون رماحا مسننة. سيقانهم عارية. ينتظمون في طابور صغير، محافظين على تناسق حركاتهم. أبهجه المشهد إلى أبعد الحدود. التزم الصمت وهو يرنو إليهم. بغتة توجه أحدهم نحوه، خفق قلبه. تحفزت أعصابه، مستعدا لكل طارئ. مر الجندي أمامه، لم يحفل بوجوده. حينذاك تيقن أن وجوده ليس مؤكدا، فما عليه إلا أن يلزم مكانه دون أن يخدش هذا العالم، الذي يقدم له نفسه دون تحفظ. بحرص، استرق النظر نحو الجهة الشرقية من موقعه. امرأة ترتدي ملابس مختلفة. لم يلمس قاسما مشتركا يجمعهما بالجنود. على رأسها تحمل سلة ممتلئة. قدر أن فيها خضرا أو فواكه. إنها بلاشك، امرأة محلية. لفتت انتباهه ضفيرتاها المستلقيتان على كتفيها. أنواع من الحلي تتوزع على امتداد الجسد. حين أمعن النظر، راعه كثرة الوشم على وجهها ويديها. كانت ترطن بكلمات مبهمة، تتوجه بها نحو الجنود لإثارة انتباههم. بائعة هي، بلا ريب، تعرض بضاعتها. جمالها لافت، وإن كانت الأسمال على جسدها لا تفي بالمطلوب. خلفها كلب من فصيلة محلية، يقتفي خطواتها. حين مرت بجانبه، تطلع إليها بكل جسارة. لم تحفل بوجوده. بحسرة تذكر أن وجوده زئبقي، مخاتل، فاكتفى بالمشاهدة. هي أكثر ما يصبو إليه. تجاوزته المرأة مستمرة في ندائها. لم يمض زمن طويل على عبورها حتى ارتفع ضجيج في الأجواء. فزعا التفت نحو مصدره، التقطت عيناه مشهدا استفزه. جنديان يسحبان رجلا، يبدو أنه من السكان المحليين، يستغيث بلاجدوى. هكذا قدر كلماته التي لم يفهم منها شيئا. كان الجنديان فظين، متسلطين. فكر أنه باسم قانون ما يفرضان على الرجل سطوتهما. إحساس بالمرارة اكتسحه، إنه عاجز عن فعل أي شيء. فقط تألم وهو يتابع خطوات الرجل المرتبكة. لا يدري كيف استقر في خلده، لحظتها، أن الأمور لم تتغير، وأن العالم - منذ الأزل - محكوم بنفس المنطق، الأشكال تتبدل، أما العمق فواحد.
في تلك الأثناء، وهو يتماهى مع أحاسيسه، رجّه صوت مختلف لا ينتمي إلى العالم الذي يكشف له نفسه.
- آسي محمد، آسي محمد
بشدة انتشل نفسه مما هو فيه، فإذا برجل من زمانه الآني يناديه. كان يبعد عنه بأمتار قليلة. تدريجيا لملم شتات ذهنه، أحس وكأنه يستفيق من نوم عميق. لم يفسح الرجل له المجال حتى يرتب العالم من حوله. خاطبه بشيء من الغلظة.
- ممنوع الجلوس في هذا المكان بعد غروب الشمس.
اعتذر من الرجل، مسح الأبنية بنظرة وديعة، ثم حمل كيانه. غادر المكان، وعلى ملامح وجهه يستلقي شرود، لم يقو على انتزاع نفسه منه، إلا وهو في أحضان المدينة، التي حط بها الرحال صبيحة ذلك اليوم.

الزمان - السنة الخامسة عشرة - العدد 4442- الاثنين 21 من ربيع الثاني 1434 هـ 4 من آذار (مارس) 2013م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vo1/15. UK. Issue 4442 Monday 4/3/2013

امرأة آيلة للسَّراب

عبد الهادي الفحيلي
قاص من المغرب

وردة حمراء تطالعني من زاوية قصية على الشاشة. خطت:

– سلام

– سلام أيتها الوردة.

– لست وردة.

– تضعين صورة وردة ولذلك أحببت أن أدعوك بها.

– شكرا، لكني لست كذلك فقط أنا أحتمي بالورد.

– مم؟

– من أي شيء، من كل شيء.

– ولو أنني أفضل أن أسميك وردة، سأناديك امرأة من ورد أو امرأة آيلة للورد.

– جميل. شرط ألا تسميني امرأة آيلة للسقوط هههههههه.

– هههههه. ما لنا وللسقوط؟

– تعبت من السقوط.

– لا تخافي أنت امرأة من زمن الورد وكفى.

– شكرا.

– تعبت من السقوط إذن؟

– نعم. نجاك الله منه.

– السقوط أنواع: فهناك السقوط في الامتحانات، والسقوط من على دراجة، والسقوط في الحمام العمومي بسبب قطعة صابون مهملة، وهناك السقوط من على درج البيت وهو أخطرها هههههههههه.

– وهناك سقوط شخص أو شيء ثقيل على رأسك.

– تماما. كأن يسقط على رأسك برميل أو حجارة كبيرة، هههههههه. أي سقوط عنيت؟

– السقوط في الحياة!

– السقوط في الحب؟

– نعم.

– غدر بك؟

– خانني وطلقني.

.....

– تفاجأت؟

– يعني. لا بأس، هي تجربة.

– لكن مريرة جدا.

– جرحك غائر؟

– بل أكثر. أن تحب شخصا، تعبده وتوقف حياتك له ثم تستفيق على خيانته ومع من؟ مع قذرة لا تساوي أكثر من ثمن عصير في مقهى من الدرجة الصفر، فتلك صفعة لا حدود لألمها.

– صفعني جرحك. تعانين من الوحدة إذن. من الوحدة والمرارة؟

– أكثر.

– لا طعم للحياة إذن!.

– نعم.

– ولا طعم للورد!!

– أهرب للورد من الجرح.

– قد لا يكون الورد بريئا، قد يدميك شوكه، قد يكون ظاهره الرحمة وباطنه العذاب!

– لكنه يبقى مع ذلك أرحم من قلوب الكثيرين. أرحم من قلوب الرجال!؟.

– يمكن....

الوردة الحمراء في زاوية الشاشة. وجهها ليس حاضرا في مخيلتي إلا بالقدر الذي أحاول رسمه استنطاقا لكلماتها. لا أعرفها. حتى الاسم الذي تستعمل مستعار، لم أعن في أي لحظة أن أسألها عن حقيقته. نزعت الصورة من إطارها ووضعتها على سطح الحاسوب مكبرة مرات عديدة. الصورة فقط أمام عيني. غبش يضبب الرؤية. حاولت التمعن في تفاصيل الوردة، شيء من شحوب يلون أوراقها من الداخل. بعض قطرات ماء على صفحاتها. كانت تبكي إذن. تشحب أكثر. تذبل. تأخذ أوراقها في التساقط. ترتمي أمامي على المكتب. أحضر كأس ماء، أسكبه على الشاشة. تينع الصورة، أقصد الوردة في الصورة. يزداد احمرارها، تنشر أريجا يكاد يصيبني بالدوار. أضغط على بعض الأزرار لأرسم لها عنقا، صدرا، وسطا، أطرافا سفلية، ألبسها ثوبا شفافا بلون السماء. جسد جميل برأس وردة، وجه من ورد. أخرجها من الشاشة وأضمها. أخبئ وجهي في أوراقها وأغرق في نعومتها وعطرها الفواح. يطلع لي من جوفها شوك يخز وجهي. أجاهد كي أبقي أنفاسي في أنفاسها. الشوك حارق. هربت بوجهي مرغما. انفلتت من بين ذراعي وانطلقت تجري أمامي. لم نعد في البيت، أصبحنا في أرض خلاء لا وجود فيها لأي شيء سوانا. لم تكن تجري في الحقيقة، كانت تبتعد عني دون أن تمس قدماها الأرض. أتبعها بكل ما أوتيت من جهد. أريجها يدوخني. يسحرني. أنجر وراءها بتأثير قوة غامضة رغم المسافة الهائلة التي أصبحت بيننا. لم أقو على مجاراتها. أحاول التوقف دون جدوى. وقفت والتفتت إلي. الثوب الشفاف يتطاير لينكشف فخذاها الجميلان. الشوك يتبدى لي من بين ثنايا الوردة الحمراء مكان الرأس كأنه ينبئني عن مصيري إن حصل ولحقت بها وأمسكتها. حاولت الإسراع في جريي مغتنما فرصة توقفها لكن المسافة استمرت على حالها. توقفت لاهثا. انحنيت محاولا استجماع أنفاسي لكن أريجها وسحرها العجيب لم يعتقاني. عاودت الجري. كانت واقفة والشوك يهزأ بي، يشرئب من الرأس. الثوب الأزرق الشفاف تجرأ أكثر وارتفع أعلى من الفخذين هذه المرة فانكشف الحوض والبطن والصدر. أجري لاهثا والمسافة تمعن في ثباتها. الوردة تمعن في سخريتها. الجسد تحت الثوب يمعن في إغراقي في بحر لجي من العذاب. الأريج يمعن في سحره. الحيرة تمعن في الاتساع. رئتاي تكادان تنفجران وتطيران خارج صدري. أصبت بالدوار والقهر والسؤال يكبر أمامي:" هل من المعقول أن أخلق شيئا ثم يتمنع علي ويستحيل علي التحكم به هكذا؟؟!!"

أعادني صوت رسالة على الحاسوب إلى البيت:

– أينَ ذهبتْ؟

الوردة الحمراء في الصورة منزوية في أقصى الشاشة.

– أنا هنا. فقط همت وراء عطرك المستحيل أيتها المرأة الآيلة للورد.

– عطري المستحيل!!

– نعم.

– ههههههههه

– لم تضحكين؟

– ضحكت وكفى. أو تدري لماذا لا أضع صورة لي على صفحتي وأكتفي بصورة وردة؟

– لأنك تحتمين بالورد من الألم؟

– لأنني امرأة من سراب. أنا مجرد وهم.

– ممكن... ما اسمك إن سمحت؟

– هههههه. قلت لك أنا مجرد سراب. وهم لا اسم له.

– إذن سأغير الاسم الذي أطلقت عليك. سأسميك امرأة آيلة للسراب.

ثمرة مُحرّمة

وإن كانت شفتاها ما تزالان حمراوين وبياضها يكاد يشع، ورغم أن أخي، الذي يقف إلى جانبي وراء فدريش النافذة، يكاد يغرق في عرقه وهو يسرق النظر إليها في شهوة توشك أن تتطاير من عينيه ومن يديه ومن شعره، ورغم أنها كانت تتمايل بطريقة تذهب العقل والفؤاد وهي منكفئة على الأرض تنشف مدخل البيت وردفاها يصطرخان من وراء ثوب شبه شفاف يتيح للعين المجردة أن تكتشف لون الخيط الأسود الذي يشطر مؤخرتها إلى نصفين... إلا أنني شعرت بانطفاء غريب تجاهها وأصبحت صورتها في داخلي باردة، باردة مثل قنينة من ماء شبع تجمدا في ثلاجة...

وأنا أسير في تلك الطريق المفضلة لدي في ذلك الوقت بعد العصر وحدي كعادتي دائما أحدث نفسي وتحدثني بعيدا عن صداع الآخرين، سمعت قهقهة آتية من جهة مستترة عن العيون، قهقهة مجلجلة مثل قهقهتها كعادتها دائما عندما تضحك ولأتفه الأسباب. لم أهتم كثيرا ولو أن قلبي انخطف للحظة وسخنت أذناي... انفجرت القهقهة مرة أخرى مثل قهقهتها تماما. استرقت النظر من خلال أوراق متشابكة وأغصان شجرة تين معمرة تخفي بقعة من أرض مقفرة تتكئ على جدار مدرسة يتخذ عادة مكانا للتبول ولأشياء أخرى... كانت تتلوى بين ذراعي شخص طويل القامة صحته جيدة وهو يعضعض عنقها، سرواله نازل حتى ركبتيه ويحرك وسطه في تلاحم مع وسطها، وجلبابها الأحمر الذي أعرفه جيدا كما أعرف بيتنا وأعرف نفسي، طالع إلى ما فوق فخذيها الأبيضين تماما كلون ساقيها الذين أحفظ تفاصيلهما، يده ترفع أحدهما. يلهثان. كانت هي مع فرق بسيط هو أن لون شعرها هنا أشقر قصير وشعرها هي أسود طويل يصل إلى منتصف الظهر عندما ترسله...

ليست هي على كل حال! هكذا أقنعتني نفسي ومنعت الدم من أن يفيض عن عروقي. أكملت سيري وأنا أصفر نغم أغنية ما وقد يكون صفيرا وكفى كعادتي دائما، ونفسي تقول لي أنني سأجدها جالسة على عتبة بيتهم كعادتها مع أخريات لا أعرف واحدة منهن رغم أنهن من بنات حينا وأعرفهن جيدا إلا أنني لا أهتم لمعرفتهن لأنني أكتفي فقط بمعرفتها والنظر إليها تتجلجل في ضحكة، ربما هي ما سمعت للتو، كعادتها دائما ولأتفه الأسباب.

بيتنا يقابل بيتها. كنت أنظر إليها مرارا وهي جالسة على العتبة من خلف نافذتنا بحيث لا تراني. أتملى صورة صدرها النافر وساقيها البيضاوين الذين كانت تتفنن في الكشف عنهما من تحت ثوبها وهي تتمايل من الضحك. عيناها السوداوان قاتلتان ومندفعتان. وجه أبيض وأنف رقيق وفم رفيع الشفتين المصطبغتان بحمرة تجعلني أختزلها هي كلها في ثمرة فراولة تغري بالقطف. أضعها على لساني وأمص ريقها الأحمر. أحركها في فمي مثل مصاصة تترك حمرتها على شفتي، لتطلقا ذلك الصوت عندما تلتحمان وأنا أنزعها من فمي برفق لذيذ. وعندما يتضاءل حجمها أتركها على لساني لتذوب في أناة وتتسرب حلاوتها إلى مسامي بهدوء حتى تتلاشى ويبقى طعمها في حلقي يشعل في نارا أجد في لسعها خدرا يبعث العياء في عظامي.

كانت تتكلم بلسان سليط وبلكنة بدوية تجعلني أتحاشى الحديث إليها رغم أننا نسكن متقابلين ورغم أننا درسنا في نفس المدرسة ورغم أنها صديقة لأختي التي تزوجت ربما بشخص كان يفعل مثلي ويمصها في خاطره والآن قد يكون تجاوز المص إلى المضغ، ورغم أنها تأتي لبيتنا لغرض أو بدون سبب ورغم... لكني أبدا ما جرؤت لأنني وببساطة شديدة لا أحدث إلا نفسي ونفسي تحدثني كعادتي دائما منذ أمد بعيد.. ربما لأني اكتفيت بالنظر فاستأنست بذلك. فأضعها بين شفتي مثل فراولة ناضجة وأجعلها مصاصة حمراء حتى تتلاشى وأتلاشى بعدها بفعل العياء و بفعل الشبع منها...

أبدا ما رأيت غير ساقيها. وحتى صدرها لم أبصر منه إلا رأس الشق في أعلاه. حتى عندما كانت تنحني لتجفف الماء من على عتبة بيتهم وردفاها يستقبلان نظراتي البلهاء من وراء النافذة وأنا أمصها مثل...لم أكن أرى إلا ما تسطره الثياب. فتتراءى لي بنهدين منتفخين قليلا وحلمتين حمراوين وبطن ضامر يتوسطه شبه ثقب مرسوم بعناية وردفين مكتنزين أربت عليهما وأمرر أصابعي فلا أصادف ما يخدش نعومتهما البيضاء فيزداد ألق الحلاوة في فمي وأنا أمصها بشفتي مثل...

وصلت إلى البيت. لم تكن جالسة مع أخريات على عتبة بيتهم منتشرة في ضحكة مجلجلة كعادتها دائما. بحثت عن ساقيها. لم أجدهما. كان الباب مغلقا. صعدت الدرج وقهقهتها تزلزلني من الداخل وساقاها يفترشان دمي الذي صعد إلى منابت شعري. لكن شعر تلك التي هناك تتفتت وراء تلك الشجرة القديمة أشقر قصير وشعرها هي أسود طويل ولا أحد يستطيع أن يقنعني بأنها هي. حتى الجلباب الأحمر لم يكن هنا. قد تكون أخرى. بالطبع أخرى وإلا فمن المفروض أن أطردها من دمي لأبقى بدون ثمرة فراولة تغرقني في حلاوتها وحمرتها وأنا أمصها مثل...

أول مرة رأيتها تلبس ذلك الجلباب الأحمر كانت يوم زفاف أختي. صعدت إلى بيتنا وهي تمسك بطرفه لينكشف ساقها الأيمن وأنا أقف بأعلى الدرج في مدخل الطابق الأول خلف أخي الذي استقبلها فاتحا ذراعيه مبتسما في شهوة جلية. انخلع قلبي لمرآها وشحب الدم في عروقي وأسرعت لأتوارى. تلقفها أخي بعناق وقبلتين على الخدين وكلمة ترحيب كبيرة وتلقفته بضحكتها المجلجلة كعادتها دائما... كانت وراءها أخريات. الأحمر في الجلباب زاد البياض في ساقيها نصاعة وبريقا. الأحمر في دمي زاد اشتعالا. طعم الفراولة زاد حلاوة وحمرة. حتى أذني زادتا سخونة واحمرارا، كل الدم في عروقي صعد إليهما. المصاصة الحمراء طالت حلاوتها ولم يتضاءل حجمها هذه المرة. عندما حولت ناظري عنها للحظة كان الأحمر يشع من كل شيء حولي. الوجوه صارت بلون الدم. الأجساد وهي تتمايل راقصة صارت حمراء. الأضواء. الأصوات. أخي يحاول مخاصرتها فتضحك وتدفعه في غنج تتراءى لي عيناه غارقتان في الحمرة ويسيل لعابه أحمر وهو منتصب بأكمله. أختي صارت ثمرة فراولة وعريسها يشحذ لسانه كي يحيلها مصاصة يغتصب حلاوتها حتى تذوب في فمه. الجلباب يهتز أو تهزه لتلتهب الحمرة في الساقين وهي تترنح على إيقاع الموسيقى الصاخبة تطلق الحمرة من كل جزء من جسدها. تصلني حممها فأحسها تتغلغل في أدق شعيراتي. ينبت لي قرنان وأحسني صرت ثورا هائجا أقتحم القاعة في هدير قوي أنطح من يعترض سبيلي. صرخ من بالمكان إلا هي. العريس التقط أختي وأدخلها في فمه وجرى بعيدا ولعابه يسيل على ذقنه أحمر قانيا. تقف بشموخ في الوسط. وقفت قبالتها ألهث. الأحمر في الجلباب. الأحمر في الساقين.. الأحمر في دمي. أضرب الأرض بقدمي أقصد بحوافري. أنفث دخانا أحمر من منخري. واقفة تنظر إلي بعينين لم أستطع تحديد لونهما لأني طأطأت رأسي ربما خوفا؟ لا أدري. قد تكونان حمراوين من الغضب؟؟ أقعيت على الأرض أنظر إلى الساقين وأجيلهما في الأحمر من حولي. كانت ثمرة الفراولة تكبر وتكبر لتحتل الفضاء كله. الحلاوة الحمراء أراها تسح من جنباتها وأنا أحاول أن أتحرك من مكاني لألعق ما يسد ظمئي. لم أستطع. قوة هائلة كانت تشدني إلى الأرض. استمرت الحلاوة تسح لتجري على الأرض وتتسرب إلى الباب وتنزل الدرج وأنا ألهث في مكاني عاجزا. حاولت جاهدا. خوار كبير يشلني. خدر شنيع يغلق عيني. قاومت لكني في لحظة وجدتني أغرق في غيبوبة....

ضبطني أخي متلبسا وراء النافذة أملي شيطاني بجسدها المستحيل. نظر هو الآخر. التفت إلي في ابتسامة تحمل معاني كثيرة. صار لي شريك في هذا الطقس. واقفا بجانبي يستعر وأنا أحس ببرودة القطب الشمالي تشل مفاصلي. انتصبت واقفة واستدارت لتواجه نظراتنا المتوارية خلف النافذة.. كان الثوب شبه الشفاف الملتصق بلحمها يعلو الركبتين ليبرز جزءا مهما من فخذيها ويكشف عن لون التبان الأسود. البطن ضامر بعض الشيء. حمالة الصدر سوداء. وشعرها... أشقر قصير يصل بالكاد إلى كتفيها....

انفجرت القهقهة مرة أخرى مثل قهقهتها تماما. استرقت النظر من خلال أوراق متشابكة وأغصان شجرة تين معمرة تخفي بقعة من أرض مقفرة تتكئ على جدار مدرسة يتخذ عادة مكانا للتبول ولأشياء أخرى..

من ملف القصة القصيرة في المغرب (10)

يوم في حديقة

زوليخا الموساوي الأخضري
قاصة من المغرب

أغلقت أندريه شديد الكتاب ووضعته على الطاولة أمامها. أسندت ظهرها إلى الكرسي، تنهدت وهي تنظر بإشفاق إلى أصابع يديها المتورمة من الروماتيزم متخشبة فوق ركبتيها.

اقترب عمر جو منها وجلس إلى جانبها. نظر إليها بحنو بالغ واضعا كتاب الصور بينهما وقال:

هل نتفرج عليها؟

عمر جو طفل من أب مصري مسلم وأم لبنانية مسيحية، بطل رواية أندريه شديد: الولد المتعدد.

لماذا تتدخلين أنت؟ قالت أندريه بنبرة غاضبة.

عمر يتحسس بأصابعه الصغيرة مكان الشظية على ذراعه المقطوعة.

بأصابع اليد السليمة يقلب صفحات الكتاب.

- الصورة الأولى

امرأة خمسينية تلاعب مجموعة من الأطفال. يتحلقون حولها. تناولهم حلوى من حقيبتها. يهرولون متضاحكين. يبتعد طفل. تتبعه. تمسك بيده وتغادر الحديقة.

ما اسمك؟ تسأل اليد الصغيرة في كفها الخشن.

- الصورة الثانية

فتاة ممددة على الأرض حافية القدمين. بلْغَتها مرمية على بعد خطوات. أياديهم تتلمسها. ألسنتهم تسألها. عيونهم تتهمها. تلتهمها.

ثلاثة شبان. أخذوا كل ما كان معي.

- الصورة الثالثة

يرتمي الطفل مرتعشا في حضن أمه.

ما بك؟

لا شيء.

ما بك؟

الرجل هناك وراء الشجيرات ينام عاريا.

- الصورة الرابعة

يجلس الشاب العشريني على الأرجوحة. يتأرجح. يضحك بصخب. يسقط هو والأرجوحة على الأرض. ينهض.

يغادر وهو ينظر شزرا إلى اللافتة: مخصصة لأقل من عشر سنوات.

- الصورة الخامسة

يتبادل الرجل والمرأة قبلات محمومة. يمرّر يده على صدرها. يدسها بين فخذيها تحت الجلباب الفضفاض.

تنظر في ساعة يدها. تتناول الورقة المالية وتغادر.

الصورة السادسة

غرس. شذّب. سقى. مسح بكفه العرق على جبينه. طارد شقاوة الأولاد العابثين بالزهور.

تمدد فوق كرسي ينعم بالظلال الوارفة لشجرة الخروب العجوز وهو يفكّر بمسكنه التابوتي الذي يتلظى قصديره تحت الشمس الملتهبة.

- الصورة السابعة

تقضم الفتاة الأنيقة من البيتزا. ترتشف جرعات صغيرة من علبة العصير المستورد. تمسح يديها بالمنشفة الورقية. تغادر تاركة للكرسي حظه من البيتزا من العصير ومن المنشفة الورقية.

تضع في فمها قطعة علكة بعد أن رمت بغطائها المذهب في سلة الأزبال المثبتة بمسمار صدئ على جذع شجرة.

- الصورة الثامنة

كيف تفعل كي تربح كل يوم؟

يصرخ العجائز وهم يتضاحكون ويربتّون على كتف صديقهم. يستدير نحوهم الفتى الأسمر الجالس على الأرض قبالتهم ويهزّ رأسه علامة القنوط...

يجمع العجوز أوراق اللعب. ينهض. ينتعل بلْغَته ويغادر يقوده الفتى الأسمر.

- الصورة التاسعة

قامت.. جلست..هبّت واقفة.. مشت في الممـــرّ.. نظرت إلى الأزهار.. ابتسمت باقتضاب للأطفال يتسابقون وراء كرة.. جلست.. فتحت حقيبة يدها.. أخرجت بعض الأوراق.. نظرت إليها مليا.. أرجعتها للحقيبة.. نهضت.. مشت بتثاقل تجرّ رجليها نحو باب الحديقة.

في الطرف الآخر كان منذ ساعة يسترق إليها النظر من خلف جذع شجرة.

- الصورة العاشرة

أنصت للسكون يعمّ المكان. أطلّ بحذر من خلف الأجمة التي شكلتها أغصان الأشجار المتشابكة متسلقة بنزق الجدار الخارجي للحديقة. لا أحد.

أخرج قطع الكارتون من مخبئها. تمددّ فوقها بجسده النحيل.

آه أمي! صرخ وهو يقفز من مكانه. انحنى يقرب وجهه من قطع الكرتون يبحث في العتمة التي بدأت ترخي بظلالها على الحديقة عن القطعة التي رسم عليها بقطعة طباشير ملوّن صورة أمه كي ينام في حضنها كما يفعل كل مساء.

هل هو الزّهايمر؟

برفق شديد أغلق عمر جو كتاب الصور واقترب من كتاب الولد المتعدد، دخل إليه ونام بين دفتيه بعد أن قال بأسف شديد لأندريه شديد:

مكسيم هناك ينتظرني.

مساء السهرة

لم يكن لي في تلك المدينة التي أتيت إليها حديثا سوى صديق واحد غريب الأطوار. ولكي أقتل إحساسي بوحدتي في مدينة غريبة ومدفوعا أيضا بقدر غير يسير من الفضول، رافقت صديقي إلى جلسة من جلسات استحضار الأرواح التي كان يدمن حضورها.

حين وصلنا كان الصمت يخيم على المكان. شموع وبخور في أرجاء البيت. تحدث الحاضرون في مواضيع متنوعة بين جد ومزاح. وبطبيعة الحال الموضوع الذي استأثر باهتمام الجميع كان عن الجن والأشباح والأشياء الخارقة للعادة.

في الركن الأيمن من الصالة ملتصقا تقريبا بالطاولة الموضوعة فوقها الأباجورة القرمزية التي ينبعث منها ضوء كمئات من النجوم الصغيرة، كان يجلس رجل لم أكن قد رأيته من قبل وحين سألت عنه بعد ذلك مضيفنا إلياس، همس هذا الأخير في أذني: سفير سابق.

من أغرب ما وقع لي حكى لنا السفير أني في سنة 1979 كنت في مهمة رسمية لكن سرية في اليونان وكان على رجل الأمن المكلف بحراستي أن يؤمن لي المبيت ويقلني في سيارته الخاصة صباح الغد إلى المطار.

بعدما انتهت مهمتي وكانت محادثات شاقة استمرت طول النهار لم نرتح فيها إلا نصف ساعة أكلنا سندويتشا، شربنا قهوة ودخنا سيجارة ثم استأنفنا الجلوس على طاولة المباحثات حول قضية أمنية على أعلى مستوى من الخطورة.

في المساء حين انتهى كل شيء، شعرت ببعض الراحة فمددت رجليّ واسترخيت على مقعد السيارة الوثير وأنا أنصت إلى موسيقى يونانية حزينة. لم أشعر برغبة في سؤال مضيفي عنها وهو من جهته حافظ على صمته كأنه استشعر رغبتي في الإسترخاء وعدم الخوض في مواضيع شائكة كنت قد أخذت منها كفايتي ذلك اليوم.

كانت أشجار الغابة تسير بمحاذاة السيارة يختفي ويظهر من بين أغصانها الكثيفة وجه القمر وفي البعيد تتلألأ مويجات البحر تحت ضوئه الساحر.

لا أدري كم من الوقت غفوت ثم استفقت على صوت محرك السيارة تخفف من سرعتها، تنعرج يمينا وتسير بضعة أمتار في طريق ترابي ثم تتوقف نهائيا. فاجأني صوت السائق الذي كسر ذلك الصمت العميق:

لقد وصلنا.

كان بيتا من طابق واحد تحف به حديقة تكاد أشجارها الضخمة تغطي واجهته القرميدية. البيت معلّق في ربوة تشرف على زرقة البحر الذي تحفه الغابة من جميع الجهات.

سأنزل لك الحقيبة سيدي. ألا يعجبك البيت؟ سألني السائق بعد أن لاحظ شرودي.

البيت أعجبني والهدوء الذي يحيط بالمكان أيضا.

كان معدا مسبقا. نظيف ومرتب. الأكل في البراد وزجاجة شمبانيا فرنسية الصنع أيضا.

بعد رحيل سائقي الذي وعدني أنه سيوقظني صباحا في تمام الساعة السابعة كي ألحق طائرتي التي ستقلع بعد ساعتين من ذلك.

أخذت حماما دافئا، غيرت ملابسي ثم جلست في الشرفة المطلة على البحر أقرأ في كتاب استجلابا للنوم واستمتاعا بصفاء وهدوء الطبيعة المحيطة بي.

ثم سمعت جرس الباب.

استغربت الأمر خاصة وأني لم أكن أنتظر أحدا.

وضعت الكتاب على الطاولة وذهبت لاستبيان الأمر.

رجل خمسيني أبيض، أنيق، يرتدي بذلة سهرة نيلية اللون بربطة عنق زاهية يقف مبتسما على عتبة الباب.

اسمح لي سيدي، منذ مدة لم يسكن أحد هذا البيت لكن هذا المساء لمحت زوجتي ضوءا بغرفة النوم وطلبت مني دعوتك إلى سهرتنا التي نحتفل فيها بعيد ميلاد زواجنا. أرجو أن تقبل دعوتي. نحن نسكن البيت المجاور.

لست أدري ما الذي دفعني إلى تغيير ملابسي ومرافقة الرجل رغم تعبي ورغم موعد سفري في الصباح الباكر.

بعد أمتار قليلة دخلنا بيتا يشبه إلى حد كبير البيت الذي أنزل فيه: نفس الحديقة الواسعة،

نفس النظام والترتيب.

موسيقى كلاسيكية تصدح في أرجائه، بعض الراقصين يدورون بخفة وهم يحضنون الأجساد الرشيقة لرفيقاتهم، البعض الآخر يتبادل أطراف الحديث أو يتمشى تحت ضوء القمر في الحديقة.

بعد أن عرّفني صاحب البيت على زوجته التي رحبت بي بشكل أشعرني بالخجل واعتذرت لها عن عدم تمكني من جلب هدية لأني لم أكن أعلم أن في الجوار حفلة وأني محرج كليا لأنها إنسانة راقية وجميلة وتستحق أجمل هدية.

أعجبها الثناء، ضحكت وقالت: أنتم العرب كلكم شعراء. تعال أعرفك على الآخرين.

الكثير منهم كانوا يسألون عن بلادي وعن ثقافتها وعاداتها. لم يكن سؤالهم من باب المجاملة بل كان نابعا عن إحساس صادق من الألفة شعروا بها نحوي أو هكذا تصورت الأمر على الأقل. فأنا نفسي شعرت أني أعرفهم منذ زمن بعيد.

والإبتسامة لا تغادر شفتيها، قدمت لي صاحب البيت صينية عليها أطباق مختلفة ونبيذ من نوع ممتاز:

أظن أنك لم تتعش بعد؟

شكرتها وأقبلت على الطعام بشهية.

كان لذيذا.

لم أشعر بالوقت يمر وصاحب البيت يملأ كأسي كلما فرغت. نظرت إلى ساعتي وقمت واقفا أودع مضيفي لأن الوقت قد تأخر وأمامي فقط حوالي ساعتين كي أنام قليلا.

أوصلني صاحب البيت إلى باب المنزل الذي أسكنه تمنى لي ليلة سعيدة وعاد أدراجه من حيث أتى.

استفقت مذعورا على جرس الباب يرن بعنف. حين نهضت من فراشي بصعوبة كبيرة أصابتني دوخة شديدة واضطررت أن أتمسك بالأثاث كي أصل إلى الباب وأفتحه.

ماذا؟ ألم تستيقظ بعد سيدي؟ الوقت يداهمنا. مابك؟ لماذا لا تستطيع أن تفتح عينيك؟ يا إلهي هل أنت مريض؟ هل أستدعي الطبيب؟

لالالا أرجوك لا داعي لذلك قلت وأنا أرمي بجسدي المتهالك على أقرب مقعد، سآخذ حماما وسأنتعش هذا فقط بسبب سهرة ليلة أمس عند الجيران.

سهرة؟ جيران؟ أي جيران؟ لا أحد يسكن في الجوار سيدي.

صاحب البيت المجاور كان يحتفل بعيد زواجه ودعاني بكل حب فلبيت دعوته. كانت سهرة جميلة.

كان التعجب باديا على وجه الرجل في بداية حديثي أما الآن فقد أصبح وجهه مصفرا.

البيت المجاور لم يسكنه أحد منذ أكثر من عشرين سنة سيدي. منذ مقتل صاحبيه. احتفل بعيد زواجه وفي الصباح وجد مقتولا هو وزوجته ومنذ ذلك الحين والبيت مهجور. لا أحد يريد أن يشتريه.

لم أصدق ما يحكيه ذلك السائق ونعتته في داخلي بالأخرق لأنه يؤمن بالأشباح فدعوته إلى الخروج معي كي نذهب إلى البيت المجاور ويرى بأم عينيه.

أنت الذي سترى بأم عينيك سيدي.

ذهلت حين وقفت بعتبة البيت الذي كان بابه مكسورا وصدئا وحديقته مهملة تملؤها الأعشاب الطفيلية وحين اقتربنا أكثر وألقينا نظرة من إحدى النوافذ كان الأثاث مكدسا بإحدى الغرف وتغطيه طبقة سميكة من الغبار. أرأيت سيدي؟ لا أحد يسكن هنا منذ وقت بعيد. منذ تلك الحادثة.

ربما أخطأنا في البيت فقط.

لكن هل ترى أنت بيتا آخر في الجوار؟

رفعت عيني المتعبتين أحاول أن أرى ما حولي. ألم شديد في معدتي وبي حاجة إلى القيء.

فعلا لا منزل آخر في الجوار عدا الغابة والبحر.

لكن لماذا بي دوخة ورغبة في التقيء؟

لأنك احتسيت زجاجة الشمبانيا.

لا أذكر أني فتحتها.

فعلا حين عدنا للبيت كانت زجاجة الشمبانيا مغلقة في مكانها من البراد.

ثم خيّم الصمت من جديد على المكان.

قدم مستحضر الأرواح من الركن القصي من الغرفة التي كان متسمرا فيه على رجل واحدة، رافعا رأسه الأشيب الذي تتدلى خصلات شعره على كتفيه يتمتم أشياء غير مفهومة وصوته الخشن كأنه حشرجة هو الوحيد الذي يسمع في سكون البيت. طلب من الحاضرين أن يتحلقوا حول طاولة طويلة بيضاوية الشكل رسمت عليها دائرة بخط أحمر. وسط الدائرة سكين من الحجم الكبير وخط آخر أبيض يقسم الدائرة نصفين. بجانب الدائرة ملاءة بيضاء كأنها تغطي جثة ما، وضع كتاب جهة الرأس ولوحة كتبت عليها خطوط ورسوم تشبه كتابة هيروغليفية جهة القدمين.

لا أدري كم من الوقت بقينا على هذه الحالة كأننا غائبون عن الوعي نحملق في الملاءة البيضاء وفي السكين وسط الدائرة. ولم يحدث شيء.

كان أخ الضحية التوأم والذي شرح لي صديقي قصته فيما بعد أقرب واحد إلى الدائرة وإلى السكين ولم يكن يحوّل عنهما عينيه الجاحظتين وبين الفينة والأخرى تعتريه قشعريرة كأنه مصاب بحمى شديدة.

وجد الضحية جثة هامدة، بجانبه رسمت دائرة في وسطها خط أبيض يشبه علامة ممنوع المرور وسكين عليها آثار دم تبين بعد التحاليل أنه ليس دم الضحية. لم يعثر أبدا على الفاعل ولا على أداة الجريمة التي سجلت ضد مجهول.

منذ مقتل توأمه وهو يعاني من هذه الحالة. لا ينام إلا بعض لحظات يغفو فيها ثم يستيقظ مذعورا وهو يحكي حلمه الذي يتكرر في كل إغفاءة بنفس التفاصيل ثم يصرخ فيمن حوله:

أخي يريد أن يقول لي شيئا، أراه يفتح فمه لكن عوض الكلام تخرج من فمه فراشات سوداء فيعم الظلام.

حاول بكل جهد أن يستعيد قدرته على النوم لكن لم تنفع في ذلك الأدوية ولا العقاقير ولا الاستشارات الطبية والفحوصات ولا أجهزة الكشف المختلفة والمتعددة التي قام بها.

فجأة كأننا استفقنا من حلم مزعج، دارت أعيننا في محاجرها كأننا نبحث عن شيء ضاع منا.

كل شيء في مكانه لكن من تحت الملاءة برزت قدمان لرجل ينتعل حذاء مغبرا كما أن أصابع يده اليمنى تظهر جلية فوق مرمر الطاولة.

شهق الجميع وتسمروا في أماكنهم. جحظت الأعين وتوقفت الأنفاس.

تقدم المجذوب بخطى بدت مرتبكة ولم يستطع منع أصابعه من الارتجاف. ببطء شديد مد يده وسحب الغطاء. شهق الجميع من المفاجأة: التوأم مسجى في وسط الدائرة، تراجعنا خطوات إلى الوراء ليس فقط خوفا وهلعا بل لأن موجات شديدة من البرد كانت تنبعث من الجثة فتتوغل مباشرة في عظامنا. شعرنا أننا تائهون ومحاصرون بفلاة ثلجية.

بحثنا عن الأخ التوأم الذي كانت الجلسة من أجله في كل أرجاء البيت. لم نعثر له على أثر.

الحلقة الأخيرة من ملف القصة القصيرة في المغرب

خرير الجدول الصغير

فاطمة الزهراء الرغيوي
قاصة من المغرب

كانت فتاة عادية، لم تعرف غير خرير الماء المنهمر من الصنبور والصوت الدافئ للمطر يغسل نوافذ البيت. تدبرت عملا في بلدية المدينة بواسطة قريب لصديق والدها، حيث كانت تطبع شهادة الحياة وتلصق بها ختما ثم تنتظر القايد ليوقعها، ثم بعد ساعة أو في الثالثة بعد الزوال أو بعد يوم أو أكثر— حسب جدول مواعيد القايد —، تسلمها لطالبيها. أغلبهم رجال ونساء متقدمون في العمر في حاجة إلى شهادة ليثبتوا أنهم مازالوا على هذه الأرض، يطلبونها بخجل خفي. زملاؤها الخمسة متزوجون، باستثناء موظف شهادة الوفاة الذي كان يصغرها بسنتين. لم يكن ليزعجها ذاك الفارق لو أنه تودد إليها، لكنه كان منشغلا بالجميلات؛ يحمل هاتفين؛ يسارع أو يتمهل في الرد كلما رن أحدهما حسب مدى إعجابه بالمتصلة، أحيانا لم يكن يرد لأنه يكون قد عاد من معاينة وفاة، فتخفت قليلا الشمعة المضيئة في عينيه ويظل رنين الهاتف يتردد طويلا ولمرات عدة قبل أن يتوقف نهائيا.

كانت تحيا حياة عادية. تتشارك البيت مع والديها وأشقائها الثلاثة وجدتها وخالتها العانس. تستيقظ فجرا على صوت حركة الجدة والخالة وهما تستعدان للصلاة، تشاركهما أحيانا. في الغالب تعود للنوم لوقت إضافي، إذا جافاها النوم تراقب المرأتين تقفان وتركعان وتسجدان، عندما تنتهيان، تعود الجدة إلى فراشها بينما تظل الخالة هناك تدعو طويلا وبخشوع. لاحقا تنهض، تغتسل وتمشط شعرها الأسود؛ تلفه في شينيون، ثم تعدّ الفطور لها ولوالدها؛ شاي بالنعناع وزيتون أسود وأحيانا قطعة جبن أو زبدة. يلتهمان طعامهما ببطء وصمت، ثم يتشاركان الطريق إلى موقف الحافلات بنفس الصمت، نادرا ما يقطعه والدها ليسأل:

— كيف حال العمل؟

— بخير.

— سمعت أنهم سيغيرون القايد.

— لا علم لي بذلك.

في الموقف ينتظران الحافلة رقم 13، تركبها هي في اتجاه وسط المدينة ويعبر والدها الشارع ليركبها في اتجاه الضواحي حيث يعمل في معمل للإسمنت.

في الواحدة زوالا، تسد بملف النافذة الصغيرة التي تفصلها عن المراجعين، تدير كرسيها مواجهة لزميلاتها لتتابع باهتمام ثرثرتهن عن الزواج والأطفال؛ سعداتك، لا رجل ولا أولاد يتعبونك بمطالبهم ستقول إحداهن، سترد بابتسامة متصلبة قبل أن تتدخل أخرى لتسألها إن تدبرت عريسا أم ليس بعد. أحيانا يقترحن عليها عريسا، ترفضه دائما لأنه يكون كبيرا جدا أو أميّا أو متزوجا بامرأة أخرى.

في الساعة الثالثة والنصف، أو قبل ذلك إن لم يكن القايد موجودا، تغادر مبنى البلدية عائدة إلى البيت. تستقل الحافلة ذاتها، رقم 13 وحين تنزل في موقف الحافلات القريب من البيت تعرج إلى شارع جانبي لتشتري بدرهم ربطة نعناع وبثلاثة دراهم رغيف شعير لجدتها و رغيفا غير مملح لخالتها.

تشاهد في تمام الساعة السابعة مساء مسلسلا تركيا، ثم تعد شايا آخر بالنعناع للعشاء. تصلي أحيانا قبل أن تفرش سريرها المكون من مجموعة بطانيات على أرضية قاعة الجلوس حيث تنام مع جدتها وخالتها. يحدث أحيانا — في الليل — أن تدوسها قدم أحد أشقائها العائد متأخرا إلى البيت في عبوره إلى غرفة نوم الأولاد، أو قدم جدتها أو خالتها في ذهابهما المتكرر لدورة المياه.

سمعت الصوت الغريب في اليوم الأول من صيفها الرابع والثلاثين، كان اليوم يصادف الواحد والعشرين من شهر يونيو، وقد حررت التاريخ على شهادة الحياة لامرأة كانت ترثي زوجها بحداد أبيض، وتردد:

— مات دون استئذان، قال أطفالنا في أمانتك ونام، حين حاولت إيقاظه في الصباح كان ميتا، وكنت قد قضيت ليلة كاملة بجانب رجل ميت.

كانت المرأة تريد الشهادة لتسلمها للإدارة حيث كان يعمل زوجها ليحوّلوا لها تعويضات الوفاة. وكان زميلها يحرر في نفس الوقت شهادة وفاة الزوج المتوفى وحين ناولته الطابع ليؤشر على الشهادة، سرت بجسدها، إذ التقت أصابعهما، رعشة خفيفة.

تعودت أن تؤرخ الأيام بالوجوه المختلفة لمراجعيها، أحيانا تفقد أحدهم وقد تعلم صدفة أنه مات حين تسمع زميلها ينادي باسم تعرفه فيأتي شخص لم تره من قبل ليتسلم شهادة وفاة مراجعها السابق.

كان الصوت مثل خرير ماء منهمر. في البداية اعتقدت أنه صادر من صنبور لم يحكم إغلاقه. لليال متعاقبة كانت تجول البيت لتحكم إغلاق كل صنابير المياه، وحالما تعود إلى فراشها محاولة معاودة النوم كانت تسمع الصوت من جديد. سألت ساكني البيت، لكنهم لم يكونوا قد سمعوا أي صوت غريب، حتى الخالة ذات حاسة السمع الجيدة التي تسمح لها باستراق السمع على أحاديث الجيران ومشاجراتهم، وحتى والدتها التي كانت تتعرف على العائدين المتأخرين من الجيران من وقع خطواتهم.. ولم تسأل الجدة لأن سمع الجدة لم يكن يتعدى ما تريد الإنصات إليه.

كخرير جدول صغير، كان الصوت يأتيها كلما حاولت النوم. لم يكن الأمر مزعجا دائما، أحيانا كانت تتمكن من النوم لتحلم بزميلها في المكتب، يوثق شهادة وفاتها بينما تقف أمامه مبتسمة، يرفع وجهه إليها مبادلا إياها ابتسامتها:

– سأضع عليها ختما خاصا لأنها شهادة وفاتك، يقول بصوت خافت يشعرها بدغدغة مثيرة.

كان، في الحلم يحتفظ دائما بشهادة وفاتها ولا يسلمها إلى القايد ليوقعها، فتظل هي سعيدة هناك معه تراقبه بينما يحرر شهادات لأشخاص آخرين ويسلمها إلى ذويهم مختومة وموقعة.

كان الحلم الغريب يتكرر كثيرا مخلفا لديها شعورا بدغدغة صغيرة تستمر حتى بعد استفاقتها من الحلم فتجلب الغطاء فوقها جيدا، وتستسلم إلى الإيحاءات الغريبة لخرير الجدول الصغير.

في الواحد والعشرين من شهر شتنبر، قالت الجدة رغم أن أحدا لم يسألها أو يخبرها عن الأمر:

— أنا أيضا أسمع صوت خرير جدول صغير.

اعتبر أهل البيت أن الجدة أحبت قصة الحفيدة فجارتها في الحكاية، هي التي لا تسمع إلا ما تريد. حاولت الحفيدة أن تعرف ما تسمعه الجدة بالضبط، فانخرطتا في أحاديث مسترسلة. كانتا تتنافسان في وصف الصوت الغريب.

تقول الجدة:

— إنه صوت ماء صاف وشفاف مثل النظرة الأولى لطفل ولد قبل لحظة من الآن.

وتقول الحفيدة:

— يشبه الصوت ارتباك عاشقين.

بات الصوت قصتهما المشتركة، كانتا تتهامسان حوله قبل النوم ثم تنتقل الجدة بخفة إلى أحاديثها السابقة عن ملحمتها الخاصة: كيف خاضت الحرب، كيف استرسل شعرها طويلا فسحر جنديا حاول خطفها، وكيف أنقذها شاب من قريتها فتزوجته، وكيف حملت بتوأم وكيف خبأت الرأس المقطوعة لقائد العدو في لفافة ملابسها لتقدمها قربانا إلى جدها الولي الصالح ليرزقها بصبي يحمل اسم زوجها ويقيه الفناء بعد موته.. كانت الجدة تحكي فينساب الماء بهدوء غامرا صوتها بعذوبة تغمر الحفيدة.

تراكمت شهادات الحياة على مكتبها منذ غاب القايد لثلاثة أيام، شعرت أن هناك حياة معلقة فوق مكتبها، حاولت الاستماع لثرثرة زميلاتها لكنها كانت تفكر بالتوأم الذي أخبرتها عنه جدتها والذي لم تعلم به قبلا. تذكرت والدها يتحدث في المرات القليلة حيث يخرج عن صمته عن نشأته وحيدا بين والديه. كان عليها أن تستفسر جدتها عن التوأم، حملت حقيبتها وقالت إن لديها أمرا طارئا وغادرت عائدة إلى البيت.

طرقت الباب مرتين قبل أن تفتح والدتها التي لم تستغرب عودتها مبكرا من العمل وعادت إلى مطبخها. ولجت غرفة الجلوس حيث جدتها مستلقية كعادتها على فراشها القريب من النافذة الوحيدة وحيث تصلها في أيام الربيع أشعة شمس دافئة.

– عدت إذن، قالت الجدة دون أن تلتفت إليها، واسترسلت كأنها تكمل حديثا بدأته قبل عودة الحفيدة:

– لقد كانا صغيرين؛ مثل كرتي لحم، قبلتهما وأنا أمنعهما من الصراخ لأن كتيبة الجنود كانت على مرمى شجرتين، كنت أتوارى خلف شجرة البلوط و نبات العليق الذي نما قربها. لم أصرخ وأنا أدفع بهما الواحد تلو الآخر خارج رحمي. كنت قد رعيت جدك لليلتين متواليتين؛ ضمدت جراحه ودفنت ساقه التي انتزعها الجندي أمام الجدول الصغير. لم أنقذ حياة جدك. عاش لأن القدر كتب له عمرا أطول بساق واحدة. كان فاقدا الوعي وكانا يغرغران مثل عصفورين مبللين. حين اقترب جندي وكاد يكشف موقعنا، كممت صراخهما بيديّ، وحين ابتعد بعد أن قال لزميله إنه صوت خرير جدول صغير فقط، كانا قد استسلما لنوم طويل. تركتهما هناك في ذات الحفرة مع ساق جدك بجانب الجدول..

كانت الجدة تتحدث بصوت خفيض، انحنت عليها لتسمعها جيدا، بينما انسابت دموع هادئة على وجهيهما. تلاقت يداهما في عناق مرتبك.

– كانا ذكرا وأنثى، لم أخبر أحدا عنهما.. لم أسمهما. بقيا هناك بدون أسماء تقيهما حر الصيف وبرد الشتاء.

بعد يومين، في الواحد والعشرين من شهر دجنبر، استقل والدها الحافلة رقم 13 متجها صوب وسط المدينة، وحين لمحته واقفا أمام نافذتها بينما يد زميلها الذي يصغرها بسنتين امتدت تضم يدها، علمت أن جدتها قد ماتت.

نصوص مشاكسة

خلدون جاويد
كوبنهاغن

ما أجمل امرأة تخون زوجها ـ الكفن
الخيانة ثقافة شاهقة
وتمزيق عقد الكنيسة الأبدي وفاء
وحرق –عقد النكاح–
تَـطَهّــرٌ من إذلال!
العصر قد تغيّر!
أصبح جلّناريا
والمشاكسة زرقاء
مثل قرصات على الجلود
علينا بكسر قاعدة أرخميدس
والنسبة الثابتة
والقاعدة الجهادية!
هناك أحزمة لا بد من فكّها
أربطة العنق الخانقة
أقمطة الزوج بحق الزوجة
والعكس صحيح..
القضبان لا بد من تفتيتها
الباستيل القديم والجديد
لابد من فك الكلبشات
المادية والروحية
الايديولوجيا الزاكمة التي كتـبَـتـْنا
مثل رقم على كومبيوتر
مثل دماغ يتغنى بتلافيفه!
وحاجب حول عينيّ الحصان
الذي لا يجب أن يرى
إلاّ الى الأمام
والحجاب –الحاجز!–
على شعر النساء النبيلات.
لابـُدّ من إغلاق بوابات الدير الفولاذية
والذهاب الى عذرية الطبيعة
وإطلاق مزلاج البيت
وفتحه على فضاء المدينة
فهو ليس مُلكا لرجل هيليني
جبروتي دكتاتوري
سيّاف قاتل صاعق
حارق خارق.
حرية المدينة أرحم
من صفعات رجال جوف عبيد
ومستعبـِدون
اللعنة على عصر يعيش في الماضي.
والبنوك!: سجن آخر
البنوك أفدح ظاهرة تمسك بخناق
التاريخ البشري
والإدخار هو التدني اللاّأخلاقي بعينه
ظاهرة لا بد من محوها بل محقها
من الوجود.
وبديلا عن الاكتناز
نكتب إعلانا ضد التجـّار!
ضد ظاهرة الجوع
ضد الترف والتأنق
واقتناء المحابس والأساور
والذهب والماس
ضد الوفرة
ضد سرير بروكست
ضد الحذاء الصيني
لابد من أن نكتب
في هامش إعلاننا العالي
وباللون الشذري :
حب للجميع
خبز للجميع
حرية مفتوحة الأزرار
للجميع.

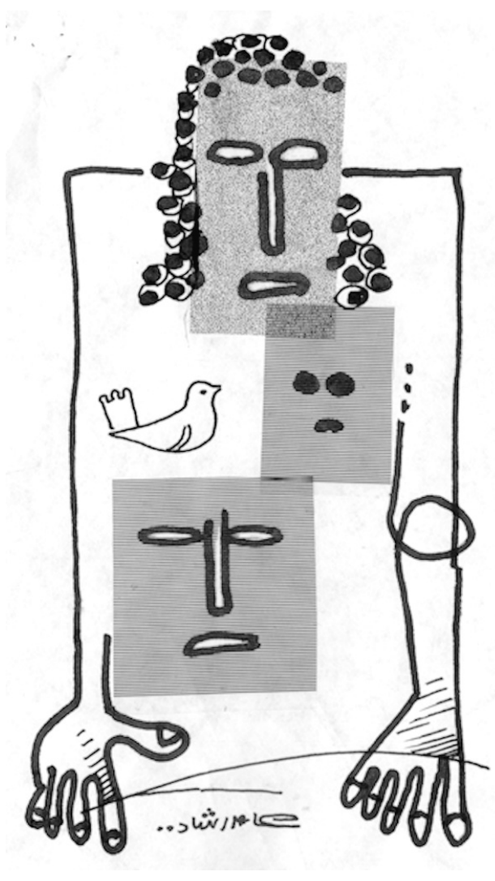

الزمان – السنة الخامسة عشرة – العدد 4451– الخميس 1 من جمادي الأولى 1434 هـ 14 من آذار (مارس) 2013م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vo1/15. UK. Issue 4451 Thursday 14/3/2013

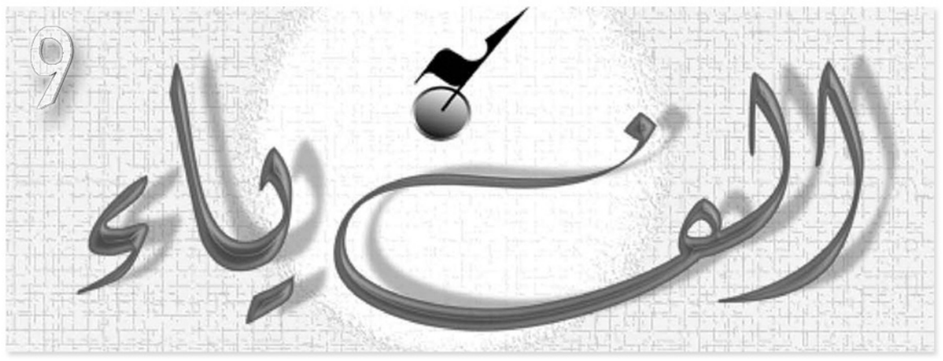

ملف القصة القصيرة في المغرب (الحلقة 9):

تشكيل:

قصص محمد زفراف ومحمد بنميلود ومحمد بيدي ومحمد ابراهيم بوعلو ومحمد الشايب ومحمد الكلاف ومحمد أشويكة

حوار مع التشكيلي العراقي قاسم الساعدي

السابع

محمد زفزاف

قاص من المغرب ـ راحل

قالت نوارة:

ـ لابد أن نجلب جوقا في حفلة النساء تلك لأنه لا يمكن أن تحلو حفلة بدون طرب ورقص.

قال أحمد:

ـ لو طلبت مني الزوجة الأولى ذلك لما حققت لها هذه الرغبة، أنت تعرفين المكنة التي تحتلينها في قلبي.

نوارة تبلغ الثانية والعشرين، صغيرة الحجم، أنفها أقرب إلى أن يكون أفطس، غير أن ما يغطي على ذلك تورد وجنتيها ووجود ذلك الخال قرب الأنف عند الحنك الأيسر. جسدها لا يبدو ذا بال، لكنها عندما تتعرى تصبح امرأة حقيقية بين يدي الرجل، أي رجل، لذيذة شكل لا يمكن تصوره مثل فاكهة ناضجة في غير موسمها. لذلك قال أحمد:

ـ تعرفين أيضا أنني ألبي كل طلباتك. لكن جوقا من الرجال لا أتصوره بين مجموعة من النساء.

ـ وأنا أيضا لا أتصور جوقا من النساء بين مجموعة من النساء.

ـ سوف أحضر لك جوقا من العمي. كثير من الحفلات النسوية يحضرها جوق من العمي.

حك أحمد تحت إبطه. تفرس فيها بنظرات جد حادة. تأمل جسدها الصغير الحجم اللذيذ مثل فاكهة في غير موسمها، هذا الجسد الذي يغطيه زغب أصهب مثل زغب الخوخ. لا يمكن لجوق من الرجال أن يغني أمام امرأة مثل هذه، لكن لا بأس إذا كانوا عميا.

قال نوارة:

ـ هذا ولدنا الأول، ويجب أن يكون احتفالنا سابعه احتفالا يغلق أفواه النساء والرجال معا. وأنت تعرف أن الناس يتحدثون حتى عن الأشياء التي لم يروها ولم يسمعوا بها.

ـ إذا جلبنا جوقا من العمي فإنه لا يمكن لأحد أن يقول شيئا.

ـ كثير من الناس يقيمون حفلات يختلط فيها النساء بالرجال.

ـ أنا لست من أولئك الناس.

تظاهرت بالغضب، شعر هو بذلك لكنه لا يستطيع أن يفعل أكثر مما يفكر فيه. هذا قراره حتى ولو كان يموت من أجل زغب الخوخ. نوارة أرادت، وأحمد أراد، غير أن أحمد أراد ما لم ترده نوارة.

ثم سُمعت الزغاريد والتصفيقات، ودخل جوق العمي متماسكين مثل عربات القطار، واصطفوا في مكان معين. احتكت أفخاذ بعضهم بأفخاذ بعض النساء، ومنهن من تجنبن ذلك ومنهن من رغبن في دفئه. هذا سابع سوف يغلق الأفواه: أفواه النساء وأفواه الرجال، خصوصا فم مينة زوجة عبد القادر، فم منانة وفاطمة الحسناوية وخدوج بنت الأصمك، ويغلق كابينة رحمة زوجة العربي الهيش. لذلك حاولت نوارة أن تبدو كما لو لم تخرج قط من حالة النفاس والولادة، حتى لا يقال بأنها ضعيفة وأنه ليس بمقدورها أن تنجب دزينة من الأطفال كما تنجب كل نساء البراريك. وعندما ارتفعت الزغاريد والتصفيقات زغردت هي الأخرى واضعة كفها فوق شفتيها العليا التي ظهر فوقها تقاطع خطوط حناء، في حين كانت اليد الأخرى تحضن الصبي فوق خذيها. وعندما زغردت أخرجت ثديها وحاولت أن تلمه عبثا للطفل الذي كان يحرك عبثا يديه شبه مغمض العينين. وقالت رحمة زوجة العربي الهيش:

ـ الله يحفظه لأمه وأبيه.

ـ لم أرد سوى أن أنبهك لأن لي تجربة في الأمر وأم لخمسة أبناء وبنات.

وقالت منانة التي التقطت الحديث رغم أنها كانت تصفق وترشف الشاي:

ـ لم تقل لك غير الحق.

نهضت امرأة من أقصى البراكة وتخطت أقدام بعض النساء وتقدمت نحو الأعمى صاحب التعريجة الذي كان يغني بصوته المبحوح الذي نخره الكيف، وعلقت له بين طاقيته وجبهته ورقة من خمسة دراهم. اضطرب عف الأعمى وأوشكت كلمات الأغنية أن تضطرب في فمه كذلك، لكنه استعاد الإيقاع، بل رفع صوته أكث وأخذ يضرب على جلد التعريجة بحماس. فعلت نساء أخريات مثل المرأة الأولى، وفي نفس الوقت كن يزررن نوارة والصبي. نهضت امرأة فقيرة واقتربت منها وقدمت لها طوبة سكر:

ـ يا ابنتي يا نوارة اقبلي هذه الزرورة، في عهدنا لم نكن نقدم سوى السكر. عصركم تبدل، ما كنا نعرف الفلوس.

وتراجعت العجوز إلى مكانها. حتى لو كان معها ما كانت لتدمها كزرورة لأن الفلوس تفلس، ولذلك قيل الله يفلسك. ثم خبطت العجوز على فخذيها العجفاوين وقالت للتي تجلس بالقرب منها:

ـ إنها صغيرة ومسكينة، لكن تبدو أنها من النوع الذي يعيش له الأولاد.

وقالت المرأة المتوسطة العمر التي كانت تجلس قربها:

ـ تقدمي إلى الوسط حتى نراك.

ـ لا أستطيع أن أرقص مع رجل.

ـإنه مجرد أعمى، وفوق ذلك فهو عجوز.

ـ عيب أن تراقص امرأة رجلا.

ـ كل شيء عندكن عيب، نحن في الدوار نراقص الرجال.

ـ لا شك في ذلك، لأنك منصورية، المنصورية لا تخجل حتى من أولادها.

وقفت المنصورية وتخطت بعض الأفخاذ والأقدام والرؤوس، أصبحت قبالة الأعمى في الوسعة الصغيرة، مدت ذراعيها في الفضاء، وأخذت تدك الأرض بقدميها. زغردت بعض النساء مشجعات لها. ارتفع صوت الأعمى وازدادت ضربات أنامله على التعريجة قوة. كانت التعريجة تحت إبطه تكاد تختفي وراء ثوب قشابته، ومع ذلك كان يسمع له صوت حاد. الأعمى صاحب الكمنجة يساعده بترديده لازمة أغنية عن الحصاد والحب والمرأة التي لا تهتم به لأنه مجرد خماس. شعرت نوارة بالبول الساخن يتسرب إلى جسدها. اعتبرت ذلك طبيعيا فتحملته، أخذت تحرك هي الأخرى جسدها الواهن. لاحظت ذلك امرأة فقالت لها:

ـ لا تحاولي أن ترقصي، الحرارة شديدة. سوف تفسدين الوالدة إذا فعلت. زوجك ينتظر منك أولادا آخرين. تعالي اجلسي.

جلست نوارة عند الباب، واستمرت المنصورية في الرقص، والأعمى ينحني عند عجيزتها وقد أصابه نوع من الحال، يضرب بعنف على التعريجة وصوته المبحوح يخترق أخشاب البراكة. نهضت امرأة أخرى وأخذت ترقص وقد نزعت عن شعرها الأكرت منديلها المزوق، ألقت المنديل في حجر إحدى النساء، ظلت ترقص في مكانها. وقف أعمى آخر كان يضع نظارتين، وتوجه نحو الوسعة الصغيرة وسط البراكة. داس المكان كالتيس، أخذ يرقص مع المنصورية والأعمى صاحب التعريجة، ويردد لازمة الأغنية، لكن صوته كان شبيها بالعواء. نفس اللازمة كانت تردد من طرف أفواه أخرى، أفواه نساء يبرن ورجال لا يبصرون.

وقال امرأة توجد قرب الباب لنوارة:

ـ لا شك أن زوجك سيشرب زجاجتين من النبيذ هذه الليلة.

ـ لم يعد يشرب، ولكنه عوضه بالكيف. الكيف أرخص يا أختي.

ـ أهاه ! مثل زوجي ! لكن الكيف يجعل الرجال كسلاء ويفقدون فحولتهم.

ـ طبعا، إذا كانت المرأة لا تعرف كيف تستحلب الثور. أقصد إذا أنهكت. أما أنا فما أزال صغيرة وقادرة على استحلاب ثور عمره ثمانون سنة.

ـ هنيئا لك يا أختي. ثم إن سي أحمد يبدو رجلا فحلا. وهذا العزري الذي في أحضانك لا بد أنه سوف يشبهه.

ـ الله وحده يعلم بذلك.

أخذت تهدهد الصبي، وتنظر إلى وجهه المغطى بخرق، ثم قبلت الخرقة الملفوفة فوق رأسه وهي تقول:

ـ الفحل اليوم هو الذي يعرف القراءة، أتمنى أن يتعلم حتى يحصل على شهادات.

ـ معك حق. لكن إذا لم يطردوه من المدرسة. لقد طردوا كل أبنائي.

ـ شكيكو! (وضربت عند خشب البراكة وتفلت في التراب.)

قالت المرأة:

ـ ألف شكيكو وشكيكو. لكنها الحكومة.

لم تسمعها نوارة لأن الزغاريد كانت تشق الفضاء، والأصوات تتعالى وتتحدث أو تتغنى ! وشعرت أنها حققت كل شيء. لقد أغلقت الأفواه. ينقص شيء: المشوي والضلعة ! لكن مازال الدهر طويلا عريضا. وفي المرة القادمة سوف يستمر السابع سبعة أيام وسبع ليال بكاملها.

ـــ إذا جلبنا جوقا من العمي فإنه لا يمكن لأحد أن يقول شيئا.
ـــ كثير من الناس يقيمون حفلات فيها النساء يختلط بالرجال.
ـــ أنا لست من أولئك الناس.

يد في قفازة

محمد بنميلود

قاص من المغرب ـ راحل

صرَّار الليل يعزف الكونشيرطو في الحديقة المجاورة. البضاعة وصلت في الوقت المحدد. واللبلاب لم يسقَ منذ أسابيع.الحمالون أفرغوا الشحنة دون أن يعرفوا ما بداخلها. الهاتف يرن وأنت تستحمين بماء بارد. تبتعد العجلات كاشطة اسفلت الشارع. ترفعين وجهك في اتجاه الماء. والقطة فوق السرير تعبث بعلبة المكياج. شعرك يتلولب كشلال. يسطع القمر واللبلاب يحس بالندى. تعض القطة أحمرَ شفاه أزرقْ. خطوات تصعد الدرج. قنينة العطر تتدفق كاملة. تتدحرج وتصطدم بفردة صندل شبه زجاجية مقلوبة. الصنبور يقطر فوق صينية فضية. المرآة في غرفة النوم تعكس القطة. والريح لا تحرك الستارة. الخزنة خلف لوحة. وخيط طويل بدايته في الصندل المقلوب. ونهايته في فم القطة. يد داخل قفازة تضغط الجرس. الهاتف يرن من جديد. في نفس اللحظة. ولا أحد يجيب. الأجندة مفتوحة فوق طاولة الأباجور. عنوان ورقم هاتف و شفرة غامضة تحتها خط. الأباجور مشتعل. في اللوحة رجل يتسول بأكورديون. الساعة تتكتك. والضوء برتقالي. صوت سعال يُسمع. مكانه غير محدد. الصمت مكبر صوت. رائحة مسك الليل أصداء تصل.و القطة تتوقف لحظة رافعة أذنا.الماء يعريك وينام معك.السعال يبتعد ويخفت.يُفتح الباب دون صوت. دراجة نارية تمر. الهدير يحرك الكؤوس المتلاصقة. عقب سيجارة يتدحرج ويتوهج على الرصيف. القطة تركز أظافرها في صباغة الأظافر. والباب لا يَصرّ. الماء يدخل بين فخذيك.باب بعيد يُصْفَق. وصنبور الماء يتكتك مع الساعة. القطة تتشمم العطر وتدوخ. مزهرية تسقط فوق الموكيت ولا تنكسر. الهاتف يرن. والقطة تقفز من النافذة.الماء يدخل في أذنيك. اللوحة توضع على السرير واقفة. تنعكس في المرآة. تعكسها المرآة في رخام الأباجور. والأباجور يعكسها مائعة على الأرضية. بأكورديون أطول. أرقام الشفرة تتكتك مع الساعة. والصنبور يتكتك لوحده. القطة تحفر قرب اللبلاب وتقعي. الماء يغرق فيك بالكامل. والخزنة لا تنفتح. القطة تهيل التراب على الحفرة وتشمها. الماء يرتديك. يظهر ظهرك من ثقب الباب. شامة على كتفك الأيسر. وشعرك شالٌ.فخذاك مطبقان على الماء. رائحة العطر تضوع أكثر.الباب يدفع ببطء. عيناك مغمضتان والماء يتلذذ.ظلٌ بقبعة يتقدم وينعكس طويلا حتى السقف أمامك. الماء يتنبه وأنت لاتستديرين. القطة أمسكت جرادة. واللبلاب حائر. القطة تسمع صوتا ثاقبا.تلتفت بخفة. والجرادة تهرب. الهاتف يرن. والخزنة فارغة. يد في قفازة ترفع السماعة وتضعها قرب الهاتف. باب الدوش مفتوح. والماء أحمر. القطة لا تجد الجرادة. الخطوات تبتعد. ظل طويل لمعطف مزرر. سياج الحديقة من خشب. صرَّار الليل يعزف الكونشيرطو. وجوقة المتسولين في غرفة النوم يعزفون معه بصمت. بقعة صباغة أظافر حمراء فوق السرير. الستارة لا تتحرك في النسيم. والقمر يختفي خلف الغيوم..

قصص قصيرة جداً

بيدها تصطاد الشمس

عزالدين الماعزي
قاص من المغرب

1
رسمت (منال) أولادا وكرة وملعبا وأشجارا
في الجانب الآخر اختارت ألوانا للملعب، للبنايات، للأزهار..
سألت طفلا يبدو أن لا أحد ينتبه إليه
- لم لا تلعب مع الصغار..؟
نظر إليها وعينه دامعه
- لا أملك كرة..؟
- حسنا، قالت (منال) سأعطيك كرة..
ورسمت كرة صغيرة ملونة بها هواء
فرح الطفل حمل الكرة وجرى جنبات الملعب، يلعب
ومن داخل الرسم خرج وقفز أطفال بألوان مختلفة يجرون..
وقفت منال تتفرج..
تضحك ..
كانت الصفارة في فمها ..
وضعت الأقلام الملونة جانبا.
واستمرت تتابع اللعبة...
في أعلى الصورة
رسمت شمسا ساطعة بعيون كبرى.
2
يحب دائما أن يلتقط صورا لأشخاص يعرفهم
في المساء ..يخرجهم واحدا تلو الآخر يقيسهم
يركبهم في حيوات رواياته
ويضحك يضحك الى أن يبول في فراشه.
3
كان مقتنعا بأنه جدير بالانتباه
فلماذا لا يستعمل ما أحل له
غمس يده في الأبيض والأسود وغسيل الثياب والمال
متيقنا كان بأنه يتبعه ..يتبعه
لم يكن ظله..كان المحاسب يردد..
الشعب يريد...
4
من أجل مسألة واحدة
جلسوا أمام خريطة وطن سموها (قطعة داما) يتأملون الوهاد والوديان والطرق الملتوية والمستوية المؤدية إلى الجنة
للنيل من صاحبهم المقرفص في صمت أو جلبة على رأسه أكاليل همومهم ويضحكون عليه بخيبة الصغار.
5
تناص
كتب نصا وأرسله إلى الجريدة وانتظر
شهرا شهران....عدة أشهر
ولما لم يظهر له أثر، نساه، طواه وكتب غيره..لكن العنوان كان دائما مسيطرا عليه.
مرة قرأ نصا لصديق يشبه نصه لكن بعنوان مغاير
جعله يشك هل هو من كتبه أم هو من سرقه .
ولأنه لم يفعل شيئا فقد فتح نافذة على الشارع
وأطل على مصابيح منطفئة ولم يستطع النوم.

6
الرئيس الذي يسهر
بما انه الرئيس الأبقى والأقوى ..والذي يسهر
والزعيم الذي لا يقهر.
صوره بالمؤسسات والشوارع والملاعب والحانات ..
حين أحس بدنو أجله، جمعهم وطلب ..
ان يصنعوا له تمثالا يشبهه .
يده تحت ذقنه تسنده ..
من يومها والشعب صامت يتغنى بالأمجاد
يراقبه.
7
ماء الحياة
لأنه لم يكن ابن الاكابر
فقد ذاق من مصروف الجماعة
واستحق ان يكون الامي الذي لا يلام
والرئيس الذي يسمع ولا يهان
جمد أرصدته في البنوك
ولم يفقد ثقته
الا في توزيع الكريمات والاكراميات على الأهل و الأقارب
وتشييد مساحات الحب
والورد والطيور
وشرب ماء الحياة
8
تعذبت المرأة كثيرا وهي تلد
حملوها فوق عربة الى المركز الصحي
قالوا ..
يجب حملها الى مستشفى المدينة
في الطريق ..
ماتت المرأة وعادت العربة .
9
هل يؤمن أنهم سرقوا الوطن
ولم يتركوا إلا البصيص من ..
زادوا في أثمنة الخضر ..الدقيق ..السكر ..الشاي ..البنزين..الورق ..
ارتأى أن ينقص من كلامه ويختزل جمله في عفا الله عما سلف .

لوحات قصصية
اللوحة 1
جنازة
كما لو أنه أعمى، رجل بعكاز يتابع،، بعينيه ما يجري عن..
مازال أخي في سريره، خلفه ما يكفي من كثبان الكتب
هو.. فكر أن دليل أيامه لن يعود
هي ..أعلنت أنها من لحم ودم،،
سوى أن رائحة ما تجمعهما
هو.. تركيبة سردين
هي ..موسيقى حريرة
فراشهما، واحد من حلفاء والأخر من حصير
يقتسمان الغرفة بكؤوس الشاي والمسمن
ويناماn بدون بيرة.

اللوحة 2
المعنى الرابع
من أعلى السطح وقفت أتفرج على ابنة الجيران الحلوة بدون معنى، كانت أمها تعلمها فن التغنج لكسب ود الشبان بينما هي تتدلل، ترفض أن ..
تتركها وحدها بعد سيل جارف من السب والشتم
فتقصد المرآة وتطلق شعرها الفاحم، تدفع صدرها الغائر ومؤخرتها إلى الوراء
بيدها تمسد بقايا كتل اللحم.
عجيزة صالحة لأي شيء في هذا الوقت
هو يقول جبل هذا أو مغارة، هي تقول.. موقع أساسي..
من أعلى السطح
أرى المعنى الرابع
امتدت يدها إلى أقرب شيء لوته رمته اتجاهي

(شويني فيك... كأنك إبليس سقطت من محفظته..)
وهي تدعي وتدعي علي، في السر والجهر
أتحاشى ضرباتها وأحبس ضحكات متكررة.

اللوحة 3
لسان آدم
آدم يراقب المؤخرات كأنه قناص ..
كلما مرت امرأة فاتنة أو فتاة .. تغنى بجسدها وتنهد.
آدم لا يعبد الا الأجساد الثقيلة والأرداف الغليظة يميل الى الحسرة وضرب الكف على..
كلما مر صدر ناهد او مؤخرة بكتلة لحمية يتحسس عشب صرته ..
لا شيء يبعثر أفكاره غير تدخين السيجارة نهارا والكيف ليلا ومتابعة الأجساد الثقيلة المليحة العالية العارية على قنوات الراي والشاو...
كأس وراء كأس، وراء امرأة فاتنة وسيجارة، ملائكة تحوم حول نصوصه تحرق قلبه وجيبه..
في الحلم يرى الدنيا ظلمته، أو..حرمته..
وأنها ولدته قبل الأوان أو أن السبب...
زوجته النحيلة المريضة بالسل
داخله يمدد عموده... يشحنه، يبلطه، يقشر... تعبانه
في الليل.. يحلم أن يتوسد جسدا شهيا هائلا أو
امرأة من سلالة أخرى
يعض شفتيه
يضع قبضته تحت عنقه، وينام..كهارب من عدالة،
يغش في... يغيرها بنفسه ويحاول النوم.
من وراء زجاج النافذة، يراقب المارين والمارات، قناص بعينين ولسان من لهب..مقعد فوق كرسي..

الكلب السائب

هشام ناجح
قاص من المغرب

كان الخريف مذنبا هذه المرة أكثر. يحتسي شموخه الزائف بنوع من الرغبة في خنق النفوس البائسة، غبار يتطاير في كل الواجهات وذباب كثيف يشاكس بطنينه ولسعاته ضيوفه الكرام.
المحطة الواطئة بكراسيها المغبونة تستقبل الصفير والحشرجات، سحنات كالحة مخطوطة بسيول الهم يبدو أنهم لم يأكلوا جيدا منذ عهد عاد.
قطار الخامسة لم يصل بعد، يتحرك المراقب السمين بشاربه الكث المشغول دائما بفتله، فيتماوج بسرواله المنهدل في مهب الريح... الثقب في الجوارب يثير ضحك بعضهم، يتحاشى النظر إليهم يعلم قلق أسئلتهم، لكنه مرة مرة يحرك خيط الهاتف مدمدما بكلمات مبهمة ومشيرا إلى الجموع بيده.
تزداد وتيرة حفيف الأشجار وترفع الأعاصير الصغيرة التراب والقش إلى فوق، فترتكن الأكتاف إلى وقع واحد متلذذة بمعاشرة روحية مبهمة ومنتعشة بنشوة السجائر الرديئة التي تخفف من الزفرات، فلا يسمع سوى صوت الصبي الأشعث بعينيه الكابيتين يهرول بينهم بطبقه المملوء بالخبز والبيض المسلوق : " بيض ساخن... بيض ساخن "، مثنيا على دجاج سلجوق لتتأجج نار الرغبات، يبصق أحدهم على الأرض ويحدجه بنظرة جبارة، إنه يكره هذه الرائحة منذ صغره.
انحدرت شمس الغروب تلقي برشفتها الحمراء الأخيرة على المحطة الواطئة، يبدو أن العمال مضربون اليوم، شريط من العربات الفارغة يصبو إلى الراحة، لازال المراقب السمين يتحاشى النظرات الجائعة فيعود إلى الهاتف لتلميع صورته.
هكذا تترادف المشاهد في بؤبؤ العيسى الحلبي الهارب لسنين عدة من وحل نظام بلاده إلى جبال كردستان المثقلة هي الأخرى بأحلام حزب العمال.
ثمة شيء يجثم على قلبه كالصخر، يؤمن بالحرمان... لاتستهويه المدن العملاقة، حتى نحافته تشي بهذا الزهد القاسي، فتسكن المعطف الأسود الطويل المتآكل على حافات المحطات... وملامح تمور بالأمل المترجى في إشعال نيران الثورة، فلا أفضل من الشرق بملله ونحله، الناس عطشى للأفكار والنظريات.
يطرق ساهما بعد أن جذب نفسا من قوقعة نرجيلته الصغيرة وشافطا القهوة السوداء من قارورة الدواء الصغيرة... يحدق في الوجوه مبتسما ابتسامة لا معنى لها فيقول : " رغم فساحة الكون فلن تجد لك وطنا يأويك فلا وجود للأوطان إلا في مخيلة المقهورين ".
ينزع جاره حذاءه المطاطي، تعبر الروائح أنوف الكل، يتبادلون نظرات الاستياء، يتوسد الجار الحذاء ويغط في نوم عميق مكسوا بشخير تجفل منه البهائم وهاذيا بكلامه الفاحش المثير للضحك يتوسلها أن تقترب منه ليقبلها... يلقي بيديه على عنق العيسى الحلبي يحاول أن يتهدهد لينفلت منه. لم تبق من الليل سوى ساعة واحدة.
لازال المراقب يزعق في هاتفه مستنكفا ما تبقى من لعبته اللعينة. هزيم كالرعد يسمع دويه وقعقعة السكك تتناهى الى سمعه فاستبشر بقدوم القطار :
" وأخيرا هاأنت أيها اللعين كدت أن أخرج عن طوري أمام هذه الأكباش ".
يصفق بيديه المكتنزتين للحاق بالممر، استوى القطار يلوك السكك من جديد، وارتكنت الأكتاف إلى وقع واحد متلذذة بالمعاشرة الروحية المبهمة باستثناء واحد.
وفي الصباح تناقلت كل إذاعات بلده موته أو قتله ببهجة عارمة، فتنعته بالكلب السائب، وأدرجت أغاني الصباح كعادتها تتغنى بمناقب النظام.

من ملف القصة القصيرة في المغرب (9)

طريق الكلام

محمد الشايب

قاص من المغرب

المدينة التي تموت شتاء وتحيا صيفا، لم تكن لا في البال ولا في الحسبان، لكنها جمعت بينهما في مساء من مساءاتها العصية، فأوقفت ليل الصمت. وهيأت لهما طريقا مفروشا بالكلام، وأخذا يسيران..

قالت: البارحة فقط، احتفلت بمرور سنة على طلاقي من رجل أراد أن تكون له ذرية، بينما أردت أن أظل بلا امتداد..

قال: أنا الآن في مفترق طرق شتى، لا أنا طليق، ولا أنا مقيد، لا أنا مالك، ولا أنا مملوك، لا أنا منطفئ ولا أنا مشتغل، لا أنا نار، ولا أنا ماء..

قالت: أسكن الآن وحيدة مشتتة بين العمل والقراءة والتيه في الشوارع..

قال: كل يوم أذهب إلى عملي منهكا، وأعود منهكا، أشاهد أفلاما شتى، وأستمع إلى الأغاني، وأشرب الكؤوس، ولا أنام حتى يصيح الديك..

قالت: الأبواب ماتا، وكل الإخوة هاجروا، والزوج راح يبحث عن الذرية، وبقيت أنا شجرة بلا ظل..

قال: أمس شاهدت فيلما بلا مقدمة ولا نهاية ولا بطولة، ظللت أتبعه حتى نمت، ولما استفقت وجدت مذيعة الأخبار تتحدث عن الاحتباس الحراري..

قالت: قبل أن يموت أبي بساعات قليلة، شد على معصمي، وأوصاني وصية لبستها وقتا وجيزا، ثم خلعتها.. !

قال: حين تستيقظ المدن يثقل النوم أجفاني، وحين تنام أصاب بالأرق..

قالت: تأتيني تلك المدينة بسحابها وشمسها، بصمتها وكلامها، بليلها ونهارها.. آه منها تلك المدينة، نحبها، ولا تستطيع العيش فيها..!

قال: منذ مدة لم يصلني سلام !أتراها نسيت؟!

زوجها مدير البنك الكبير، وأولادها الثلاثة، وعملها المحترم.. ألا ينسيها كل هذا في متشرد لا يعرف ليلة من نهاره..؟!

قالت: تلك الطريق، ذاك النهر، تلك الأمطار التي بللت ثيابها، تلك الدروب التي عانقت حماقاتنا، تلك الهمسات، ذاك الصمت، كم هي جميلة تلك المدينة..!

قال: كم من دجنبر مر الآن؟! قلتها، ومضيت متحصنا بصمتي، حاضنا خيبتي، ثم قصدت صدر أمي..

قالت: صديقتي، الآن، غير التي كانت، ألتقي بها كل يوم، فأراها سحابة من الأسئلة، تحمل محفظة، وبخطى وئيدة تقصد المدرسة..

قال: جبال شاهقة تحجب ذلك الشهر العاق المسمى دجنبر، فيه قلتها، كانت السماء ملبدة بالسحب، والطريق مبللة بأمطار الصباح، وكانت الأشجار ترقص على نغمات رياح الشتاء، وكنا اثنين لا ثالث لنا، والغابة والنهر والشارع شهود..

قالت: سألتني يوما عن وجه تلك المدينة، هل ما زال كصباح الربيع؟!

قال: كلهم كانوا شهودا.. لكن الدواء تحالف مع الداء، فظل الجرح ينزف دما، منذ ذلك المساء البعيد من دجنبر البعيد وهو ينزف..!

لماذا ألبستني يا دجنبر هذا اللون؟!

ونفخت في رأسي كل هذا الجنون؟!

وأرغمتني على التيه..

وركوب أهوال الأسفار..؟!

لماذا يا دجنبر القاسي..؟!

أهذا جزائي كسائر المتيمين..؟!

قالت: احتميت بالصمت، لكنها عاودت السؤال، فأجبت بصوت خافت، وأنا أنظر إلى الأرض:

المدينة مازالت كما كانت لكن أهلها هاجروا..

قال: افترقنا في نهاية الشارع، هي عرجت على اليسار قاصدة منزل أبيها، وأنا على اليمين قاصدا بيت أبي..

قالت: حين هممت بالانصراف، طلبت مني أن أقرئك السلام..

قال: وقبل أن نفترق رجت مني أن يظل كل شيء طي الكتمان..

قالت: لماذا لا نخلع كل الهموم، ونخرج عراة كما ولدتنا الأمهات..

قال: لم لا..؟! والقلب ما زال فيه متسع، وأمطار الأغاني لا تتوقف عن الهطول..

اشتعلت الأضواء، نزل الليل، غطى المدينة، امتلأ الشارع، هاجت الأجساد، تحركت المقاهي والمطاعم والحانات والساحات، بدت المدينة فاتنة اكثر، لكنهما لم يتوقفا، لم يأبها بشيء، وظلا يشقان طريق الكلام.

هوس الكتابة

محمد الكلاف

قاص من المغرب

وحيدا...أحمل بين يدي أوراقا وقلما... أجوب الكورنيش المطل على الميناء، بحثا عن فكرة...عن قصة...عن لحظة إبداع...

شاحبة هي الأضواء، يحجبها الضباب، فلا ينعكس نورها على صفحة الماء الهادئ هدوء النسيم... هدوء اللحظة...هدوء المكان...

اعترض سبيلي خمسة زبانية غلاظ شداد، مقنعي الوجوه، تحجب عيونهم نظارات كالحة السواد كملابسهم...أحاطوني بأجسادهم الضخمة، كمموني... حجبوا عيوني، ثم لفوني في سيارة سوداء هي الأخرى التي انطلقت تخترق الشوارع والأزقة الخالية بسرعة مخيفة، لتتوقف بعد دقائق في ثلث خال إلا من نعيق الغربان والبوم، اقتدت لحظتها إلى سرداب تحت أنقاض منزل، خيل لي من خلال رائحة الرطوبة أنه مهجور وقديم... كبلوا يدي ورجلي بعدما أجلسوني على كرسي من بقايا العصر الخشبي الأول، ثم أخذوا في استنطاقي، وكلما تشبثت بالصمت، انهالوا علي بالسياط من كل صوب، حتى انسلخ جلدي، وتمزقت ملابسي، وأضحى كل جسدي مباحا لعنفهم ووحشيتهم ، وكلما تعالى صراخي واستغاثتي التي لم تكن تتجاوز حنجرتي، وكأن بها خواء، إلا وازدادوا شراسة وتنكيلا بي وبجسدي.

الأسئلة تلاحق الأسئلة: أنت تحلم كثيرا... يجب أن تكون أحلامك على قد مقاسك، لا يحق لك أن تحلم بالألوان... أنت بالكاد تستحق أن تحلم بالأبيض والأسود، فلم تحلم..؟.

فتزداد القسوة كلما ازداد تجاهلي لهم... اللطم والركل والرفس... الصفع والسب والشتم، والنعت بأبشع النعوت.

لحظة توقف الاستفزاز... ساد الصمت، ليتدخل صوت قوي مخيف: دعوه لي. فانفلق جمع الكلاب الشرسة، وبقيت مدرجا بدمائي... أحسست برجل قوية تطأ أصابع رجلي فتسحقها، لم يعد بوسعي أن أتألم، لأنني لم أعد أحس بكل جسدي من شدة التعذيب، ثم استؤنف الاستنطاق.. في وكأنني في مخفر شرطة: ألا تريد أن تعترف..؟ -

من الأحسن لك أن تقول كل شيء، وإلا..؟

حاولت أن أعرف ما اقترفت من ذنب، فأجبت بسؤال: بم تريدونني أن أعترف..؟، ماذا تريدون مني..؟ أنت تحرض الناس على القراءة بكتاباتك، وتوهمهم بأن الكتابة فن وإبداع..؟

نعم، الكتابة فن وإبداع ... بل الكتابة حياة.

قهقه بصوت متهكم مجلجل، أحدث رجع الصدى في الفراغ... في اللامكان، ثم استطرد بصوت أكثر عصبية: أنت جرئ كقلمك الذي يقلق راحتنا، وينتقد توجهاتنا، وسنضع حدا لك ولكتاباتك اللاذعة ... ثم صاح فيهم: هيا، كهربوه.

وما أن توجوا رأسي بتاج مغناطيسي، حتى تسربت صعقة قوية إلى كل أجزاء جسمي، وشعرت بجسدي يتنمل ويرتعش بقوة غريبة، تهتز لها كل فرائسي، أصبت على إثرها بغيبوبة، ولم أعد أشعر لحظتها بأي شيء، سوى بنفس بطيء ... أهذى كالمحموم، وأهلوس كالممسوس... ثم صاح فيهم من جديد: اقطعوا لسان قلمه...

انتفضت مذعورا للدفاع عن قلمي الذي صادقني لسنوات :- سأجعل له لسانا آخر أكثر حدة .

سنقطع يديك.

سأكتب بإرادتي.

سننزع تفكيرك .

سأفكر بضميري.

سنحرق كل أوراقك ودفاترك.

سأتخذ من قلوب الآخرين أوراقي، لأكتب عليها قصائد حب يقرأها كل العشاق...

وبكيت... بكيت بحرارة... بكيت بألم... بكيت بحرقة... ثم صرخت في عمقي بقوة وعصبية: أنا أعشق الكتابة حد الجنون... دعوني وأقلامي... اتركوني لكتاباتي... لاشأن لكم بي... لاشأن لكم... والدموع تنهمر من عيني مدرارا... لحظتها أغمي علي ... وبعد لحظات صمت وسكينة ، استفقت من الصدمة ... لم أجد أحدا في محيطي، كما لم أكن مغلولا أو مكمما، لكني وجدت القلم ذاته ما زال بين أناملي، وبجواري ورقة كتب عليها بصيغة الأمر:

- " أكتب... أكتب ما عنت لك الكتابة".

أوركسترا..ي

محمد اشويكة

قاص من المغرب

الإيقاعيون واقفون..

جلد أياديهم يقارع جلودا منتقاة من أجساد حيوانات لم يفكروا في صوتها قبل سلخها.. إنهم يخبطون بتناغم.

×××××

النَّفَّاخُون يهتزون..

يأخذون أنفاسا عميقة من الهواء النقي دون أن يفكروا في أنفاس عمال المناجم التي اختنقت قبل أن تهوي على رأسها طبقات الأرض المهتزة.

الناياتي المحشور بين هؤلاء حشرا.. يمسك بقصبته ويعزف موسيقى إيكولوجية شجية وحزينة.

×××××

الكَمَانِيُّون يميلون ذات اليمين وذات اليسار كسرب حمام يطارده نسر في الأعالي..

لم يفكروا في أشجار الغابات التي امتدت إليها أياد شبيهة بأيديهم قبل أن تندثر الغابة.

×××××

عازفو القيتارة والماندولين والبانجو أتعبهم الوقوف.. من حين لآخر يداعب أحدهم آلته وكأنهم غرباء لئام على مائدة الأوركسترا.. أو يعانون من عمى بتهوڤن (مرض يصيب الموسيقيين غير المنسجمين)!

×××××

القانوني وحيد منعزل يعزف بل يسوي أكثر مما يعزف.. منهمك وكأنه خائف من بطش الأتراك زمن سليمان القانوني أو الفرس زمن القوة الإمبراطورية...

بجانبه عازف البوزق يصارع من أجل أن تصل أصابعه رأس الآلة.. وكأنه يتسلق بالفعل السلم الموسيقي.

عازف العود يجلس أكثر مما يعزف.. وكأنه استفاق على التو من الليلة الوسطى من ألف ليلة وليلة.. أو يريد أن يذكر الناس بقصة زرياب.. كلما عزف لا يخرج عن نوتات مقام النَّهَاوَند!

×××××

أوتار الوترين منقبضة وكأنها تعاني من مغص المعدة بسبب التخمة أو أن أوتار آلاتهم من مصارين بهائم ضامرة.. فهل يجب على الموسيقي أن يحافظ على نحافته من أجل أن ينسجم مع حجم آلته؟!

×××××

عازف البيانو مندمج وكأنه في لقطة من "درس البيانو" يقايض عريه بقطعة من آلته لعله يستردها بعد فقدان شهواني مؤقت.. أو كأنه "Shine" الضرير يرى الكون موسيقى.. أو "البيانيست" المتخفي الفَار من ويلات هتلر.. أو "عازف الأطلنتيك" السابح الذي لا تطأ قدمه اليابسة!

×××××

الكورال متهم بريء إلى أن ينفصل عن الجوقة.

×××××

هل انتبه قائد الأوركسترا الذي دخل حالة جذبة منذ بداية العزف إلى أن كل العازفين تلتصق أعينهم بالنوتة.. ترى لمن يحرك صولجانه؟ هل هم يعلنون ميلاد جنس فني يجمع المسرح والأوبرا والسمفونية؟

×××××

الجمهور يتعجب متسائلا: يا له من شرود؟!

الموسيقى شرود.. سجل كل الأصوات الشاردة.. ضجيج متآلف في صخب.

دقائق سائبة

حسن برما
قاص من المغرب

1 ـ كاتب

وضع يمناه في قفاز مثقوب و صاح:" أنا كاتب كبير"
أجابه صدى الوقت:" و سر العب مع أقرانك!!!! "
هز كتفه المائل و أدخل يسراه في القفاز المنسي قائلا:"وأنا مالي سوقي !!!!!!!! "

2 ـ افتضاض بكارة

زحف على بطنه فوق النقوش الملغومة، لم يسبقه صوت يعلن قدومه، انحنى بتؤدة، ارتمى على الكاس، قبلها بعنف، وصب ما في جوفه دون توقف، في اليوم الموالي خرجت الجرائد بخبر رئيسي "اعتداء البراد الطاغية على كأس مقهورة"

3 ـ في انتظار الرضى

أدخل رجله اليمنى في الشربيل الموروث عن جدته الصماء، و سعل، تجاوز عتبة الحوش، هرول مسرعا إلى جهة ما، التفت وراءه، رأى جمع المريدين يتبعه بنفس الحركات و الإيقاع. صرخ، ابتعدوا يا أغبياء، سأضعها في سروالي، اختفى وراء شجرة جرباء، تسمروا في مكانهم و راحو يوجهون أنوفهم جهة اليمين و اليسار، بركة الشيخ غالية و رائحة أمعائه ليس لها مثيل، بعد لحظات، ظهر يمشي الهوينى، على وجهه علامات الارتياح و الطمأنينة، صار أمامهم، قال، و دابا اتبعوني للحلقة راني راض عنكم. مسحوا أنوفهم و تبعوه في صمت.

4 ـ تصويت

لم يكن في لائحة الترشيح غير اسمه، و مع ذلك، أصر على القيام بحملة غير مسبوقة، وزع الوعود المعسولة و الابتسامات الصفراء، وللذين شك في ولائهم، طالبهم بالقسم واستعمل العار.. بعد التصويت و الحساب، كانت الصدمة، كل الأصوات ملغاة ولاواحد قبل بالضرورة، حتى الزعيم اشتدت وطأة الزهايمر عليه ونسي كتابة اسمه.

5 ـ لعبة صبيانية

اتفق الأطفال على لعبة الأب و الأسرة، وزعوا الأدوار فيما بينهم، تماهوا مع الشخصيات المقترحة، لكنهم اختلفوا وتشاجروا حول دور الأم، كثر لغطهم، ولم يعودوا يميزون بين الواقع واللعبة، في وقت ما، حضر الأب المفترض منهكا، اشتكى من زحام السوق، رمى في وجوههم كيسا بلاستيكا أسود تلقفوه بلهفة واستطلعوا الأمر، لم يجدوا غير بيض الغولو تفاح الحميرو بضع حبات ملساء من عنب الذئب المشاع.

6 ـ تنقيح

اقتنى جريدته الصباحية ودلف المقهى، استعد للدخول في طقسه اليومي، كعادته، فتح الجريدة من مؤخرتها، لم يجد حديثا لا عن خريف الربيع العربي ولا عن ثورة الجياع، فقط صورة كبيرة لشقراء نصف عارية تحتل ثلاثة أرباع الصفحة، ضرب كفا بكف، عاد للصفعة الأولى، تأكد من اليوم والتاريخ والعدد، وقرأ تنبيها بحروف صغيرة في مربع أسود "طبعة ثانية مزيدةو منقحة ".

7 ـ علاقة غير فيسبوكية

هي راحلة عبر دابتها الافتراضية، بمحاذاتها زوجها غارق في نومه، يشخر، تدفعه برفق، تتفاعل مع تعليقات قوقجية ساخرة، تطلق ضحكة مسموعة، يزداد الشخير قوة، تدفعه بعنف و يسقط من السرير، ينهض غاضبا و يخطف الحاسوب من فوق فخذيها، يرفعه للأعلى، تطلق صرخة بلهاء توقظ عصافير الجوار، يعيد الحاسوب بهدوء فوق الفخذين، يخرج قائلا :"نطفي الحرام ديال العداد الكهربائي أحسن!".

8 ـ همس الحرقة

البيضاء:لم تندم و لم تيأس و مصيرك المفتون ينقاد للون العدم.
القلم:مداد جوفي أنهار دم مغدور تزحف فوق تربة الجر حال يومي بطيئة منصاعة لتيارات الهوى الدفين و ضرورة كشف المستور.

الكلمة:تلك الحبيبة الجاثية عند أعتاب قلب يعشق براءة البوح وفتنة الاعتراف بتفاصيل الحزن المشاع.
الكاتب لجميع ما سبق:طفل أنا يقودني هوسي و الإصرار على رش الجرح بملح الكائن الموبوء يقينا ذاك الذي أريد و معه لا أرغب في سيوف الكراسي المسوسة ولا خنازير الظلمة والغياب.

9 ـ وردة الزمن الحالم

اختفت أطلال الأحلام الموءودة، ودع نار الحنين، ومشى وسط الجمع غير مصدق لما يقع، صادف وجوها غيبتها ظلمة التواطؤ اللعينة، وابتسامات دافئة افتقدها لكنها الآن تعيدهلزمن العشق الأول، تابع مشدوها نشيد الأصوات الهادرة التي تكسر حياد الشارع الموحش، بعد لحظات، انسحب من مسار النشيد، دلف محلبة جانبية، ثم خرج محملا بعلبة كرطونية كبيرة بها قناني ماء وتحريضا أكثر، اختفت القناني بسرعة البرق اللامع، وامتدت إليه يد نسائية ناعمة بوردة حمراء لا تقدر بثمن، أخذها مبتسما، توجه بها لشرطي عابس مصلوب، قال:تفضل يا رجل هاك وردة لزمن حلمنا الآتي فلا تعاند ولا تتجبر".

10 ـ اعترافات متأخرة

بين زحام الرؤوس المشتعلة شيبا وأحلاما، ظهرت بيريته السوداء بخطوطرمادية تؤدي كل عين ثالثة متأهبة، الرأسو الكتفان والجزء العلوي من جسده المتهالك فزاعة آيلة للسقوط وسط حقل شعير وسنابل منحنية تنتظر موكب الحمير المعهود، عند المدخل المحروس، أوقفته حسناء جميلة وقوام مثير خرج للتو من قصة واقعية مفترضة، أمسكت به وسألته مستنكرة:"لماذا تفوح من قوقجاتك المسعورة تأوهات الأجساد المأجورة وروائح المراحيض وإسطبلات البهائم السائبة؟ "اضطربت دواخله ورد بنبرة المهزوم:"سيدتي.. كلماتي حياتي، وفي يومي أحاسيس حانقة وتفاصيل مرحاض عمومي يجهل صعقات الانتماء لحب الناس الطيبين والحنين لعطر الكلمات الوفية لتربة الجرح الدفين.."

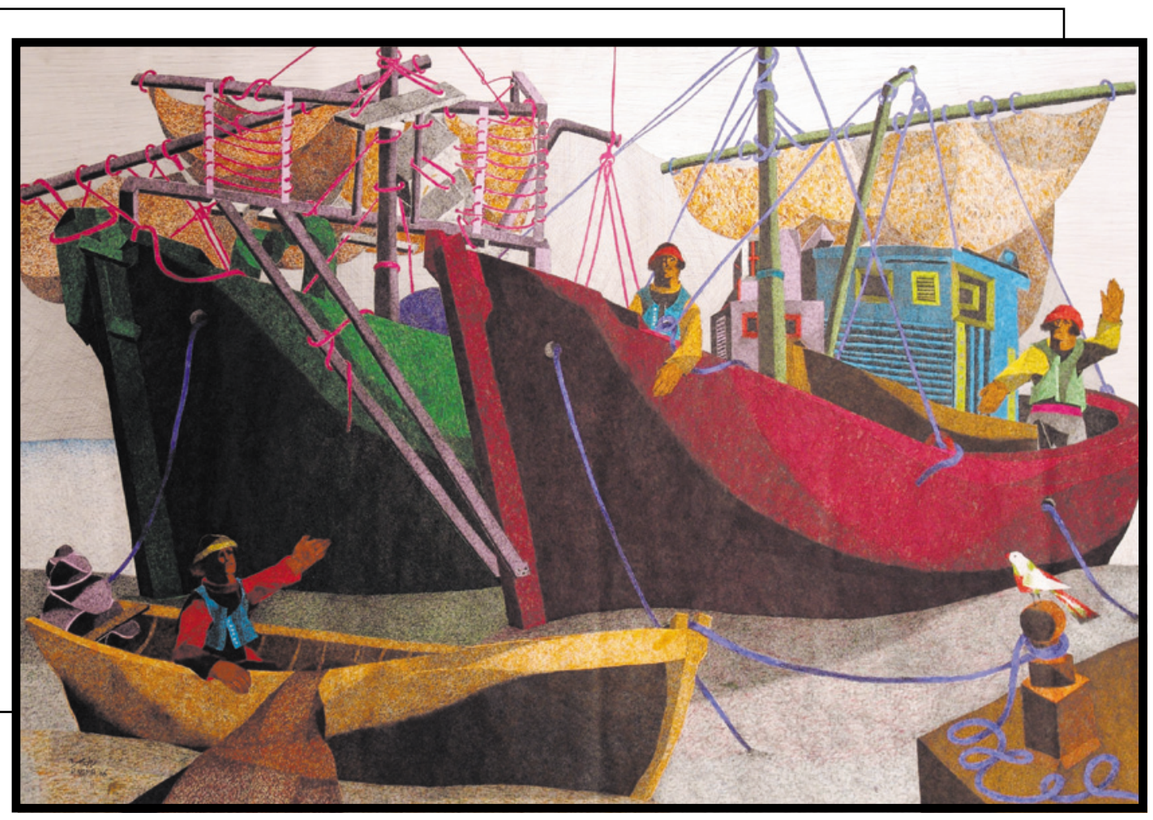

البيضاء : لم تندم و لم تيأس و مصيرك المفتون ينقاد للون العدم.
القلم : مداد جوفي أنهار دم مغدور تزحف فوق تربة الجر حال يومي بطيئة منصاعة لتيارات الهوى الدفين و ضرورة كشف المستور.

قصص قصيرة جداً

الجدار الرملي

حسن برطال
قاص من المغرب

طاق..طاق..طاق..أنامل المحقق تضغط على الأزرار والآلة الكاتبة تكتب...ولما نطق القاضي بالإعدام تأكدتْ أن تلك (الطقطقات) أخطر من (الطلقات).
خُشُب مسندة
صنعتْ لأطفالها أرجوحة من حبال وخشب..لكن الذي ألف ركوب ظهرها يتطلع إلى عنقها ويتمنى لو كانت الحبال هناك..
اختبار شفوي
أحد المرشحين للانتخابات الرئاسية رفض (أصوات) الناخبين.. هو لا يريد أن يسمع من جديد:
– الشعب يريد إسقاط النظام..
وردة بابل المعلقة
إلى معاذ علبي .. الذي جاء بالبريد العاجل إلى هذا العالم
فُلة في يد عروس جميلة.. تُقبلها.. تشمها.. تُقربها من (حاستي السمع و البصر)
نحلة تسألها عن مكانها فتجيب:
– أدور الآن حول القمر..
كتابة هيروغليفية
قلبتَ وجهك.. فمك و أنفك إلى الأعلى ثم العينين و الأذنين.. وقف أمامك فرعون و قرأ:
ـ من داخل المغارة، (الكوبرا) تشم...ترى..و تسمع..
(بالأزرق) كفناهم
التلاميذ يرسمون السماء..ضعيف البصر اختلطتْ عليه الأقلام فوضع ألوانا متعددة على ورقته..وبينما الذين استعملوا (الأزرق) يضحكون..يسخرون كان قوس قزح في الأفق..
اليوم الأول يموت (القط)
النجار يطلب طول و عرض الباب..الزوج يطلب اقتراح زوجته ..
الزوجة تقول: أريده أوسع من كتفيك..

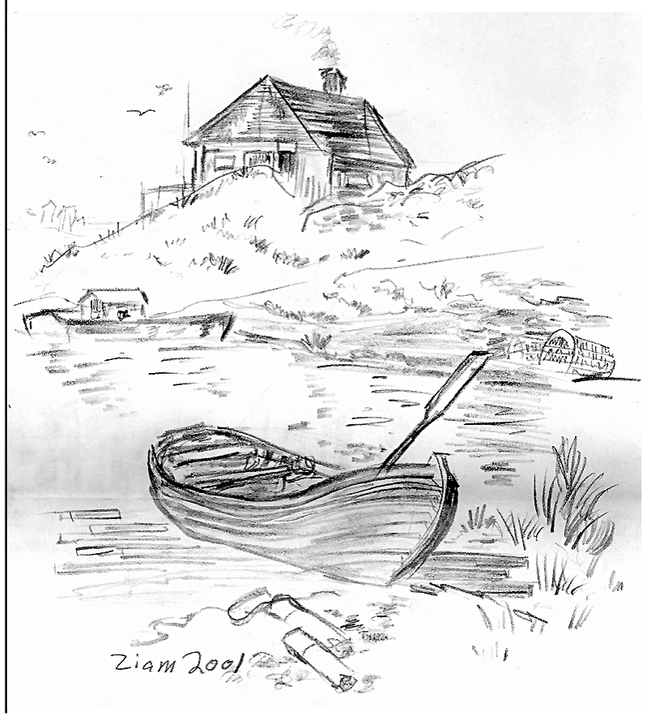

تشظي جسد امرأة مهزومة

إدريس الواغيش
قاص من المغرب

أدارت مفتاح باب الشقة، و... دخلت حركت مقلتيها في جمجمة رأسها ثم جالت بنظراتها المشتتة في أركان البيت، كان ضوء خافت يشق طريقه إليها في الظلام، كأنه قادم لتوه من زمن بعيد لم تعشه بعد. رمت بجلابيتها على السرير فتذكرته. ألقت نظرة خاطفة على المرآة، تمثل لها بجبينه المقطب وشارب خشن، كثيرا ما أدمى شفتيها النديتين، وغاب تتبعه خطاه المتناغمة وصوته المرعب.
– أكرهك... أمقتك... نعم أخونك... لا بد أني يوما قاتلك...(هذا كل ما تتذكره الآن...)
– القتل بالقتل، والبادئ أظلم... (لكنني كنت أحبه، لم أقتله، هو من قتل نفسه.... رددت بينها وبين نفسها).
تسمرت للحظات هائمة ثم....، ابتسمت/ تذكرت/ تشنجت، أطلقت عليه عدة رصاصات في الرأس، تصاعد دخان كثيف في الممر، سمعت قهقهات تنحدر في السلالم. ولتشفي غليلها أكثر، تبعته وأتبعته بطلقات أخرى في الظهر. تكسرت المرآة المثبتة أمامها، وتطاير الزجاج من حولها، تراجعت مذعورة في خطوة إلى الوراء، أصابها ذهول وهي تسمع دويا قويا استيقظ معه سكان العمارة، أحست أنها فقدت شيئا مهما من جسدها، كان رأسها قد انفجر...!.
تطايرت إلى مسامعها صرخات واستغاثة، رجعت لتطلق عليه رصاصات (الرحمة)، حملقت في المرآة، لم يكن أمامها غير جسدها العاري، وفي المشهد الخلفي ولدان عاريان مذعوران. أجهزت على ما تبقى من زجاج في المرآة، ومسحت دمعة صافية من فوق خدها، كادت تعري صلابة شخصيتها وقوة المرأة الساكنة في أعماقها.
أعادت ولديها لسريرهما برفق الأمومة، التفتت إلى صدرها النافر، تحسست نهديها، تذكرت يديه الخشنتين تمران فوقهما بلا إحساس، فكرت في أن (تأكلهما) وتتخلص منهما. نزعتهما بعنف من جسدها، ورمتهما بانفعال من الطابق العلوي. كانت (عشتار) تراقب من بعيد، حاولت جاهدة أن تنقذ ما تبقى من رمز خصوبتها، لكن إصرارها كان أقوى من إرادتها، ارتطما بقوة مع الإسفلت، أطل الجيران مذعورين برؤوسهم من النوافذ، تذكروا أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تسوية جديدة لملف قديم، فسحبوها بالسرعة التي أخرجوها بها.

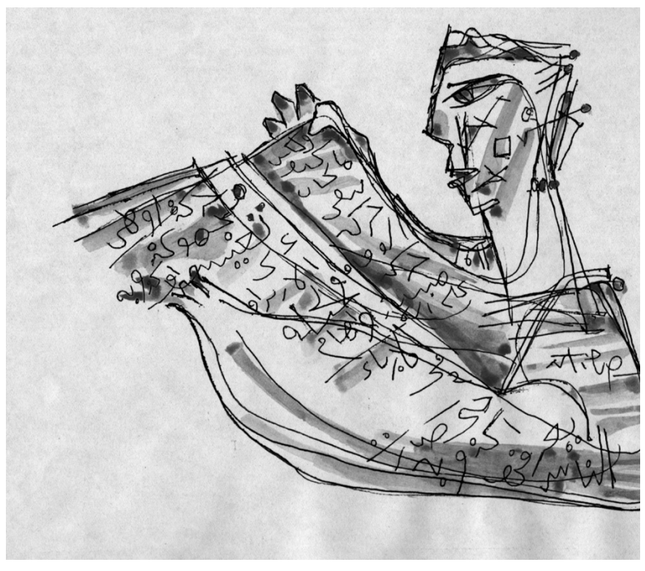

الزمان – السنة الخامسة عشرة – العدد 4445– الخميس 24 من ربيع الثاني 1434 هـ 7 من آذار (مارس) 2013م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vo1/15. UK. Issue 4445 Thursday 7/3/2013

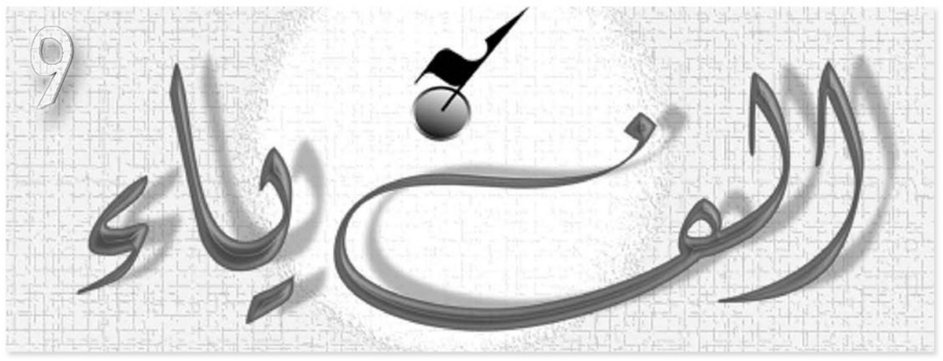

ملف القصة القصيرة في المغرب (4):

قصص من: ابراهيم الحجري وحسن برما وحسن برطال وادريس الواغيش وحسن البقالي وبوشعيب عطران

فنون:

الفكر والإبداع في المغرب محط تكريم وجوائز

نهايات متعددة لحلم وحيد

إبراهيم الحجري

قاص من المغرب

أووووف! كم هو ملتهب هذا الغلاء... حتى كأس ماء لم يعد من السهل الحصول عليه في هذا الزمن المشتعل...(الكراب) صاحب جرة جلد الماعز ما عادت تقنعه قطعة العشرين فرنكا... أصبح يطلب قطعة الخمسين قبل أن تطفئ سعَر الظمأ... ولم يعد يصيح... (برد ألعطشان)، بل كان يهمس كأنه يحدث نفسه متشفيا في جماعة العطارين والجزارين وهم يتطلعون إليه بشغف: (تصاحب مع الكراب في الشتوة باش يدير بحسابك في الصيف)!

قالتْ ذلك مخاطبة اليأس الذي يغلف قلبها الحزين... متخطية باحة الخضارين معتمدة على عكازتها الهرمة... وكانت الكثير من العيون ترقبها في أسى وكأنها تدمدم: (إيه يا الزمان يا الغدار... كم كسرت من جناح... أينك يا منانة؟ وعضلاتك الفولاذية؟ من كان يستطيع منافستك في قطع الأشجار وحرث الأرض... قهرتِ حتى الرجال... والآن ماذا جنيت غيرَ العناء؟ ولم يترك لك المعطي ولد الغياث سوى هذا الطفل الذي ما زال لم يفتح عينيه للنور بعد...)

تذرع الشوارع والأزقة ورحابي السوق بحثا عن يد كريمة تمنحها قرشا تملأ به معدتها وتسخن ببعض ما تشتريه بطن هذا الرضيع الصارخ بين ذراعيها الناحلتين... يملأ اللّغط السوق الأسبوعي الموزع بين رغبات الناس وحاجاتهم التي لا تنقضي... لكنها كانت تضحك حينا وتشمئز أخرى... وأحيانا كثيرة تنشغل بتهدئة طفلها الذي يتعلق بما تبقى من فتائل شعرها... ربما لعدم احتماله للحر وربما لنار الجوع التي تستعر في أمعائه.

تعود في المساء – كل مساء – ليحتويها الكوخ القصديري- تركة المعطي- تعود لتجد فراشها مازال في مكانه لم تفارقه بعد رائحة عرقها وضراط صغيرها الذي يربطها بهذه الحياة...

حتى اللحظة لم يكن يعكر صفوها شيء رغم ما تعانيه من تعب وألم... فقد كانت راضية بما تملك من هدوء وأحزان. غير أن بعض الرواة لم يستسغ هذا المسار، واستغل تنازل الكاتب الضمني ليغير حياة هذه العجوز... (الواقع أنها ليست كذلك، لكن "قفايص" الزمان ومشيئة الرواة تواطأتا لتجعلاها تبدو كذلك). (منانة!!! حلمها بين يديها! تتعب الليالي من أجل أن ترى البسمة على محيا ابنها الصغير... لكن ما بال هؤلاء الرواة الملاعين؟؟).

"...عبثا توقدين شموعك الملتهبة، وتنصبين قدرك المخرب على دفقات الدخان الخانقة... لم تسعفك دريهمات الديطاي في اقتناء خبز شاحب. واكتفيت بحليب معلب لإسكات هذا الجنين المترنح في ظهرك... المتقلب في حضنك... من أجله تعبرين شوارع المدينة حاملة علبة سجائر وعلبة سيراج... تجوبين الأزقة، من مقهى إلى مطعم.. من شاطئ إلى شاطئ.. تلتمسين دريهمات.. تسحبينها من غبار الأحذية وأنت تبتسمين لزبنائك ابتسامة مريرة فيها شعور بالغبطة أحيانا، وبالامتعاض أحيانا أخرى... وشبح الكآبة يغلف وجه الصبي المتسلق لحضنك، ترى ماذا يغمغم؟؟ ماذا يريد؟؟ هل يريد تلميع حذائه؟؟ ومن أين له الحذاء؟؟.

انتظري! هناك صوت ما يناديك... رجل في مثل سنك... يريد سيجارة... يريد تلميع حذائه... يبدو ميسورا... يفضحه احمرار خدّيه... قد تكونين محظوظة... وقد تخطئين التقدير! لا يهم... ليس هناك حل... هيّا! تكومي حول حذاءيه بعد أن تشعلي سيجارته الأنيقة من نوع لوكا... وأحسني التلميع... علّك تربحين درهما أو درهمين، لتشترين حليبا وربما خبزا حافيا: (اللعنة!! أية حياة هاته!؟ قذارة أنت يا دنيا...) يدفع الزبون، في غرور، رجله فوق الخشبة، ويرفع إليك نظرة تكاد تحتويك كسماء المدينة الشاحب... وبصوت متشنج يخاطب وجهك دون استحياء: (هذ السيراج فري ولا مزوّر آ الشريفية؟؟) تقع الكلمات على قلبك مثل الصخر فتذيبه كقطعة ثلج وتصير كبدك عجينا... ترى هل تتجرأ من تحمل وليدا في يمناها على الخداع؟؟ وتكبر فيك الأسئلة، تصير جروحا بحجم الأخاديد... تنزف غدرانا من السخط والصديد... تغيبين في هواجس ومونولوكات رهيبة... فتجاوزت حد التلميع... ولم يوقظك من غفوتك سوى صوت هذا الرجل الذي يشبه فحيح أفعى الصيف المتأخر... وكأن المدينة كلها راحت تردد صوته!!:

– (تديو فلوس عباد الله ع هكاك...)

ورمى لك بقطعة نقدية لا تتعدى الدرهم الواحد، فتدحرجت على الإسفلت تتقرقع مع الرصيف... تتبعينها بنهم... تنتشلينها من رمال الرصيف البحري، في حين كانت ريح البحر المسائية تغسل وجهك المعروق... تسحبين جسدك النحيل وتغادرين الشاطئ الذي على ما يبدو قد خلا تماما من المصطافين... ولم يعد هناك سوى بعض الأشباح الليلية من عشاق خناجر البحر القاطعة للأوصال... تسامرها بجرعات "الجينكا"... أحيانا تغرقين في أحلام رمادية كسماء هذا الليل البهيم... فيقودك فارس أحلامك الملقى على ظهرك في استسلام لنوم عميق إلى مدينة لا تعرفين اسمها: (ولدي عويد الخيزران، يكبر ويقرأ القرآن، ينجح وينسيني تعوس الزمان) هذا الحلم بنزينك للمسير... لوطء الشوك والحجر الناتئ... لقطع المسالك المجهولة... تهرعين للباتسري المجاور لتقتني حليبا معلبا وشوكولاته ولعارض ما لا تشترين خبزا... بين الحليب المعلب والعراء والطفل تنشرين شراع أحلامك العبوسة كجناحي عصفور جريح، يهرع تارة للأفق ويسقط أخرى... ورجلاك الحافيتان تحتفلان مرة بصدأ العجلات، وأخرى بحبات الرمل الواخزة كالإبر. وأنت لا تبالين سوى بصياح الجالسين على الهامش الضائعين في دخان السجائر:

– آ ملات الديطاي... واحد ماركيز...

– أسيري سيري آ شريفية.

– عندك السيراج كري آ لمرة ..

وفي الكوخ الصغير تضعين عظامك المهروسة بكد اليومي المكرور... وتنسين أن تغسلي رجليك الحافيتين أمام إلحاح صراخ الطفل الضاج بعنف يطلب ما يسد به ألم الأمعاء... تضعينه بتؤدة على ركبتيك النحيلتين، وأنت تمسحين جبينه المغلول بقطرات عرق بارد، وصفرته تعلن تحديا كأنه يرفض روتينية اللحظات الرهيبة المشتعلة كشمس لا ترحم... يفتح المسكين فاه متعطشا لقطرات الحليب مثلما تتعطش الأرض صيفا لرذاذ المطر... وأنت تبتسمين ملء فمك كنت تصبين الحليب بهدوء متابعة حركات فمه الموافقة لإيقاع مصات تلك الحلمة البلاستيكية العنيدة... لم تكوني تعلمين أنك تصبين الموت في جوف حلمك الذي يربطك بالحياة... ينتهي الحليب... يفتر نشاط الطفل... يسكت... تتقلص ملامحه... ينقبض ينام إلى الأبد... ينطفئ الحلم... ترى ماذا يجدي البكاء يا خالة؟؟!"

طبعا، لن يعجبك – أيها القارئ الرهيف الإحساس- هذا الفناء الذي سلطه هذا الراوي اللعين على هذه الحكاية، من حقك أن ترفع عينيك سخرية وامتعاضا ومن حقك أن تصَفِّر وتصفق لراو آخر قد ينصف أبطاله ولربما يكون متفائلا أكثر:

(... على العكس تماما، لم يكن الحليب مسموما، ولم ينم الطفل إلى الأبد بل كانت إغفاءة راحة بعد انتعاش بطن تضور طيلة النهار من ألم الجوع ترعرعت الأحلام ونمت مثل شجرات الموز وعندما اشتد عود الطفل وقوي وكان اسمه (صخر) ضاقت السبل في وجه الأم ولم تعد قادرة على تلبية حاجياته، فأودعته لدى واحدة من دور الحضانة بعد أن قبلته بين عينيه ورشته بباقة دعاء. كانت ما تزال متمسكة بإحدى يديه حينما تسلمت إحدى المسؤولات بالدار يده الأخرى، ولم تتمالك نفسها إذ سبقتها دموع عينيها المحملقتين في محياه الطفولي، وظلت يدها ممدودة حتى بعد أن غربت عن لحظيها ملامحهما وهما يبتعدان داخل صالات وحجرات الدار. وكانت تبدو على فمها الأدرد علامات الحيرة وكأنما تتمتم (سير يا وليدي يا صخر خليت ليك الله... أنت جمرة تحرك كلبي... مليت تعوس ليّام ... ما قدرتش نشوفك تتعذب ف جنبي وجبحي خاوي ما عندي ما نقدم ولا ما نوخّر... ها زماني حافي راسي عاري اخدم واردم... جبحك عامر فين ما دورتي يلقاك التيسير والعوين...)

تعود أدراجها ملجمة بأساور الخيبة... تجوب بخيالاتها صحارى اليأس والإحباط ... تذرع برجلين حافيتين الدروب والأزقة... ما عادت تبالي بالصخر الناتئ ولا أغلال الجدران المنصوبة أمام أعينها وبصيرتها.

ذهبت من حيث أتت... الشارع نفسه المؤدي إلى مقبرة سيدي بوزكيكيرة... ولم تعد البتة...

قفزت الأيام بصخر وضحكت له الدنيا... صار تاجا في زمانه... افتخر به أهل العلم ورحبت به أسماء لوحات النتائج... ودقت في وجهه طبول الانتصارات والتحديات... وبعد أن تعرف على فتاة ظن أنها ستكون شمعة لأحلامه، طرحت عليه سؤالا مزعجا:

– لماذا لم تحدثني عمن أنت؟؟

وظل ساهما يرتجف في ارتباك... وتمنى لو أنه يعثر على تلك العجوز التي قادته من يده إلى دار الحضانة، كانت بئيسة وشاحبة... ذاك ما كان يذكره... إخ إخ خ ما قيمة الثروة؟ والعلم؟ والجاه؟ أح ح ح عليك يا صخر!...)

استدرك راو آخر الأمر وحز في نفسه أن تغتصب الحكاية هكذا، وبدا له من عين الصواب أن يلتقي صخر بأمه العجوز... (أما أنت أيها القارئ فلا تقلق ولا تنزعج وأمهلنا عذرا في أن ننصت للحكاية أكثر من اللازم)... ظلت منانة مكابرة تستبق الزمن... وتزور من حين إلى حين فلذة كبدها وحلمها الرائع الذي أهدته لها السماء لتستعذب به لماظة الحياة... ولم تنس أن تحمل له معها حلوى الماضلين وريبي جميلة الذي كان له عنده الطعم الخاص الذي يضاهي مذاق حليب الأم... كان صخر يكبر وتكبر معه أحلامه .. صخر ولد منانة هكذا لقّبوه... مطامحه تكسر الصخر وتذوب الثلج... لم يسعفه ذكاؤه في حصد علامات جيدة في الدراسة... فانقطع عنها... لا يهم ماذا فعل بعد ذلك غاب عن دار الحضانة... فافتقدته أمه مدة طويلة... ولما ظهر اسمه وصوته أول مرة كان على لائحة الترشيح للانتخابات البرلمانية... حملت منانة الورقة، على الورقة صورة ابنها... هو بعينه وأذنه... تنظر إلى وجوه المارة وتنظر إلى الصورة... ابنها رجل أعمال ناجح... هو الذي نجح في الدائرة 14.. تقف الآن أمام قبة البرلمان تحملق في وجوه الداخلين... ها هو ابنها صخر يتقدم... تبتسم... تهرول نحوه. دموع الفرح تسبقها... تعانقه بكلتا يديها... يرتبك، ينفضها من عنقه يعيد ترتيب مقجاجته وهندامه... ينظر إليها بشزر:

– الله يجيب ألالة... واش انتوما وليتو باغين... تخطفو!

× "إم م م ، الله يحضر الشهادة..." قال راو آخر... ثم أضاف:

(لا. لا لم يكن صخر كذلك، صخر دم حر ومرمر نفيس... تخلى عن الدراسة فور إحساسه بقدرته على العمل... غادر الدار وعمل شيالا بسوق الأحد... ضحى بأحلامه ومطامحه من أجل أن يحسن إلى هذه العجوز التي بصقت عليها الدنيا... كل مساء يعود وبيده حقيبة من البلاستيك ملآنة بالخضر والفاكهة وخبز الشعير... وكانت الأم منانة تطالعه بنفس الابتسامة العريضة التي تكشف عن فم أدرد نالت منه يد الأيام والليالي... وحنجرة تجأر له بالدعاء الصادق الذي تفضحه بحة الصوت:

(– الله يفرشك بالرضا ويغطيك به يا وليدي! بغيت سفينتك ديما تروح ناجية...)

تهافتت الأوبئة على الجسد الذي أضناه السفر اليومي بين الجدران... واقترح أهل الدرب أن ينقل صخر منانة إلى دور العجزة القريبة من مقر سكناه...

فكر ثم دبر ثم رفض...

تألم كثيرا لتدهور صحتها...

وفي مساء شتوي إذ كان يحملها بين يديه كطفل ويلقمها بعض الأكل وإذ كان يشعر بسعادة لا تقاوم... أحس بجسدها ينتفض... تلك ساعة الفراق... ربما أن حكاية منانة وصخر لن تنتهي أبدا....

تذرع الشوارع والأزقة ورحابي السوق بحثا عن يد كريمة تمنحها قرشا تملأ به معدتها وتسخن ببعض ما تشتريه بطن هذا الرضيع الصارخ بين ذراعيها الناحلتين... يملأ اللّغط السوق الأسبوعي الموزع بين رغبات الناس وحاجاتهم التي لا تنقضي... لكنها كانت تضحك حينا وتشمئز أخرى...

الزمان – السنة الخامسة عشرة – العدد 4444– الاربعاء 23 من ربيع الثاني 1434 هـ 6 من آذار (مارس) 2013م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vo1/15. UK. Issue 4444 Wednesday 6/3/2013

إضاءة

النقش بالحناء

حنان كوتاري

قاصة من المغرب

كثيرًا ما نختار الشقاء لأنفسنا، ثم نلوم القدر والحظ العاثر.

تركت سيارتي في الشارع الرئيسي وأتممت سيري مشيًا على الأقدام، فالحي العتيق في هذه المدينة ضيق وكثير المنعطفات والمنعرجات، شأنه في ذلك شأن أمثاله بالمدن المغربية، كانت شمس عشية ذاك اليوم باهتة، تطل في خجل من وراء سحب صيفية شديدة البياض، تأتينا أشعتها دافئة لطيفة تعلن عن دنو وقت الانصراف.

وضعت يدي في جيبي معطفي. وسرت في الدروب الطويلة المتصلة، كانت الدروب تتسع أحيانًا وتضيق أحايين كثيرة كأنها الحياة بأزماتها، وكانت خطواتي بطيئة توهم الناظر إليّ بأني سائح يتريث في مشيه بغية التأمل فيما يخلفه الزمن للإنسان من أسرار تذكره بمرور العصور وتعاقب الأجيال؛ لكن بطء خطواتي في الحقيقة كان ناجمًا عن مرض ألمّ بالجسد فأوهنه، وإن كنت وقتها في أزهى فترات العمر... الشباب.

لم تكن البيوت متعددة الطبقات، كان معظمها يتكون من الطبقة الأرضية والسطح، ولم تكن هناك مساحات خضراء تفصل بينها، وإنما التصق كل بيت منها بالبيت المجاور له، فعزفت جميعها لحنًا دافئًا جعلني أرثي لحال الجدران الشاهقة التي ربت فينا الأنانية والانغلاق، وأنستنا أن الإنسان بالإنسان يحيا، بدت البيوت يومها، كأنها طفل فقير يتيم يرتدي حلة جديدة في يوم عيد؛ لكن جدة الحلة لم تفلح في إخفاء ملامح فقره ويتمه، الشقوق التي تزخرف الحيطان، والأجزاء المتآكلة من الأبواب الخشبية أو المهدمة من بعض السطوح، والغلاف البلاستيكي الشفاف الذي حل محل الزجاج في النوافذ.

هذا كله لم يفلح في إخفائه رداء الجير الأبيض الذي ألبسه أصحاب البيوت لبيوتهم، استعدادًا لاستقبال الباحثين عن الكراء من الزوار الذين يفدون إلى المدينة طلبًا للمتعة بالشاطئ القريب منها أو طمعًا في بركة وليها الصالح.

كانت الدروب رغم ضيقها تعج بأمواج من البشر يجمعها المكان وتفرقها النيات والمقاصد، ومن هؤلاء البشر باعة بعضهم افترش الأرض، وبعضهم اتخذ من الغرف المطلة على الدرب دكاكين، وهكذا تحول الحي العتيق إلى سوق تعرض فيه ألوان شتى من السلع، وتنبعث من أماكن مختلفة منه رائحة الشواء والسمك المقلي، وتختلط فيه أصوات تدعو القريب والبعيد إلى الاقتراب لاقتناء سلعة ثمنها مناسب وجودتها عالية، بأصوات دافعي العربات الصغيرة الذين يحذرون الناس من الاصطدام بهم بعباراتهم المعروفة (بلاك ـ بلاك) فيضطرونهم إلى التنحي جانبًا ليتمكنوا من المرور.

تراءت إلى عيني من بعيد القبة الخضراء والصومعة فغمرتني مشاعر فرح غريبة، وتسارعت خطواتي، ونسي جسدي وهنه، واندفعت نحو القلب النابض للحي العتيق.

في الدروب القريبة من المسجد والضريح يكثر بيع أنواع محددة من السلع مثل الأواني الفخارية والخزفية، والحلي التقليدية، والأعشاب، والتمر والفواكه الجافة، كما يكثر اعتراض النسوة والفتيات طريق المارة رجالا ونساء ودعوتهم إلى النقش بالحناء، ولا تعجب من هذا، فالعادات الحديثة تبيح النقش للجميع، كما أن دكاكين النقش بالحناء، ذات مهام خفية لا يعلمها سوى روادها.

بعد رحلة طويلة في دروب الحي، وجدت نفسي بالساحة الممتدة أمام الضريح والمسجد، رغم زياراتي الكثيرة للمدينة، لم يحدث من قبل أن قصدت هذا المكان أو ألقيت عليه نظرة عابرة، نزعت نظارتي السوداء ووقفت أتأمل الأبواب والنوافذ والزخرفات، أتتبع حركات المتسولين وأنصت إلى توسلاتهم ودعواتهم، أتفحص وجوه زوار الضريح. وأحاول تخمين حاجة كل واحد منهم، مستعينًا في ذلك بعلامات التفاؤل أو اليأس أو الحرج أو الفضول التي تبدو على صفحات الوجوه، وبينما أنا كذلك، إذا ببصري يقع على فتاة تنظر إليّ بنظرات متسائلة مترددة، وكأنها ظنتني للوهلة الأولى الرجل الذي عرفته منذ زمن، ثم حال تبدل ملامحي وغرابة لباسي دون تأكدها من صدق ظنها، وعندما التقت نظراتنا اقتربت مني وسألتني:

أ أنت هو؟

أجبتها: نعم. أنا هو؟

انفجرت ضاحكة وهي تقول (من نهار دفنوه ما زاروه)، ثم تجاذبنا أطراف الحديث، علمت أنها تركت العمل بالدكان القديم بعدما تشاجرت مع صاحبته، واكترت دكانًا صغيرًا مع زميلتين من زميلاتها، ثم ما لبثت أن استقلت بالعمل وحدها، بعدما اختفت إحداهما مع سائح خليجي، وسافرت الأخرى إلى الدارالبيضاء؛ لأن شارع عين الذئاب كما سمعن (خير كثير)، وفي مجرى حديثنا سألتني عن صديقي عبد القادر الذي كنا نلقبه "حليم"، خرجت الكلمات من فمي متعثرة حزينة:

حليم في المستشفى!

شهقت الفتاة وهي تضرب صدرها بيديها وسألتني عن مرضه!

قلت: أصيب بمرض...

وقف بجانبها طفل صغير جرها من جلبابها وطلب منها نقودًا، لكنها نهرته، تفل عليها، وجرى نحو سيدة تستعد للدخول إلى الضريح.

قالت وهي تنظر إليه يسأل السيدة: إنه ابني!

سألتها: تزوجت؟

ضحكت ضحكتها الماجنة وهي تضرب كتفي بيدها اليمنى وقالت: أمجنون أنت! أتظن أن مثيلاتنا يتزوجن؟ أنا لا أستطيع تحديد والده الحقيقي، وكيف لي فعل ذلك؟ إنهم كثر!!! ثم اقتربت مني وهمست إلي:

أخبرني ما حاجتك فأقضيها لك؟

فهمت قصدها فاعتذرت بلطف، وعندما أدركت أنها لن تجني منفعة من لقائي ودعتني، وهمت بالانصراف، لكني استوقفتها قائلا: حليم مريض بالسيدا....

سألتني بسذاجة: وما السيدا.....؟

ابتسمت وأجبتها: مرض خبيث.

دعت له بالشفاء وسألت الله الصحة والعافية ثم انصرفت

ظللت مكاني أجول ببصري بين دكاكين النقش بالحناء والمسجد والضريح، كانت السماء ما تتحول إلى سواد، وكانت الطيور تتسلل بين السحب في أسراب منظمة، وكان المؤذن يؤذن لصلاة المغرب، لبست نظارتي وبدأت رحلة العودة إلى مدينة الدار البيضاء؛ لأستعد للدخول إلى المستشفى، فقد بلغ مرضي مرحلته الأخيرة... ولم يتبق وقت للانتظار.

السَّرَاب

توحدت ذاتهما مع الجدران المتآكلة... في محاولة بحث متهالكة... عن ضجيج مرح ينفث الدفء في الغرفة المظلمة الباردة.. في تلك الليلة الشتوية التي يتوشح جيد قصعات "الكسكس" أو"الرفيسة" فيها بقلادة من الأصول و الفروع و فروع الفروع... احتفاء بقبلات السماء الحنونة.

ليلتها، أدركا أن الغرفة منذ سنوات خلت، مظلمة، باردة ، لا تنتشي نشوة الفرح و النور إلا للحيظات متباعدة حينما يطرق الباب عابر سبيل حملته رياح مشاغله الحياتية إلى مكان قرب المكان، فتذكر الأبوين القابعين في الغرفة فوق السطح، وينقضي اللقاء قاتما ينوء من ثقل الوحشة نرعى سرابا؟

وتستشعر- نفس منها – سخونة أنفاس الأجساد الطرية وهي تفتش مغمضة العينين عن منبع الغذاء الأبيض الصافي، ثم يعقب الذكرى تنهد ينشد: عجبا للإنسان حينما يقسو وينسى!!

×××

انتشل النداء المقدس الفؤادين من هاوية الانفطار، تدثر الشيخ بجلبابه الصوفي وخرج قاصدا المسجد، تعثر في طريقه برسوم وكلمات كلما عزم على محو أثرها وإسكات صوتها الناطق بحقيقة الماضي البعيد، ناشدته حيطان السطح أن يحفظ حرمتها ولا يهتك سترها، تابع الشيخ طريقه، واستقبلت زوجته القبلة تسأل الله بنبض صادق حفظ شجيراتها الثلاث.

وقف بجانبها طفل صغير جرها من جلبابها وطلب منها نقودًا، لكنها نهرته، تفل عليها، وجرى نحو سيدة تستعد للدخول إلى الضريح.

المعطف والزجاجة

عبد السميع بنصابر

قاص من المغرب

هبّت ريح خفيفة لعبتْ بطرف معطفي وراقصت شعرها الناعم حتى لامس وجهي، فحضنتها تحت المعطف ونحن نسير معا على الرصيف المبلط الذي عكس أنوار أعمدة الشارع. همست من تحت معطفي:

ـ إن لم تتزوجني سأنتحر.

أطللت عليها بأنفاسي من فتحة المعطف، ثم طوقتها بحرارة. أسكرتني معزوفة الليل فوجدتني أعقب:

ـ سأنتحر قبل أن أتزوج غيرك.

سيري يا أيام وجيئي يا أيام، وتزوجي يا خائنة بشرطي وانفخي كرشك معه مرتين. الخبيثة.. لم تنتحر كما قالت! وتنتحر من أجل ماذا؟

لك الآن أن تمضغي العلك وتفرقعيه بصوت عال وأنت تثرثرين أمام باب منزلك مع جاراتك اللائي يشبهنك في كل شيء تقريبا.

لك أن تنادي ـ أمامهن ـ على ابنك الأصغر الذي خرج ليلعب دون إذنك:

ـ حمييييد!

هاهو حميد يا سيدتي أمامك. بُس أحميد ماماك! وامسحي أنت على رأس حميد بيدك وقولي أمام جاراتك إنه يعشق لعبة الشرطي والسارق. وسيري أنت يا جارتها معها في الخط ـ بلا حشمة ولا حياء ـ قائلة:

ـ كأنه سيدي أحمد ـ زوجك ـ يا سبحان الله! غير هو صافي.. الله يخليه لك!

وتدخلي يا جارتها الثانية، وثمني ما قالت الأولى.. وهُرْ سي أحمد.. وحُطْ سي أحمد، وهذا.. وكذا.. وبلاتي...

فرحة الآن؟

يا للسخرية! كل من سرق منه شيء استنجد بشرطي ليسترد ما سرق منه إلا أنا. أنا سرقني الشرطي نفسه. هل يعلم ابنك حميد هذا يا ترى؟.. قلت لا يضيرني أن تركلي ميكانيكيا مثلي لتعانقي رجل أمن، بقدر ما يغيظني الوقت الذي مثلنا فيه أردأ مسرحية ذات غباء منا. هل أعجبتك قبعته الزرقاء التي يمر من وسطها الشريط الأبيض؟ ربما بذلته ذكرتك يومئذ بالأفلام الأمريكية التي كنت تشاهدينها على الشاشة الكبيرة على حسابي طبعا..

وعصير الليمون الذي كنت تسكبينه في بطنك كل مساء؟؟

ومصروف الحافلة؟؟

و..

ودوري يا عجلة الزمان دوري. وانسجي يا عناكب خيوطك حول الذكريات انسجي . وحاول في كل مرة أن تستلقي على سرير الوحدة. كنت تطلب الموت فلا يسمعك. لا تجد غير الحزن وهو يتربص بالسرير من كل جانب. يسحبك من أطرافك ويرفعك إلى الأعالي، فتلفي نفسك كالأعمى وسط الضباب. لا ترى شيئا. لكنك تتبين إلى حد ما قهقهات مرعبة وهي تنهش كيانك... ويتواطأ القدر ومعه الأشياء، حتى يلقى بك من جديد من فوق السحاب إلى نفس الشارع الطويل، لتجد خطواتك تتيه على رصيفه مرة أخرى.

هبت الريح الخفيفة ولعبت بطرف معطفك الجديد مرة أخرى. لكنها لم تجد الشعر الناعم لتراقصه، فاستدارت باكية..

هل يعلم حبيبها أنها كانت هنا قبل سنين؟

قالت أعمدة النور:

ـ كان يا ما كان...

وأنت يا رصيف، ألم تغازل حذاءها؟

ـ ...

تلاحق خطواتك وخيبتك تلاحقك. تحت المعطف الجديد كنت وحيدا. قالت لوحة الحانة التي تألق ضوؤها في ليل كئيب:

ـ بالحضن..

قال معطفك الجديد:

ـ لنجرب..!

توقفت هنيهة. أطللت على المكان. كان ساكنا كالمقبرة. تسلل المعطف من فوق ظهرك، ثم جلس على كرسي مقابل لك. غمزك بعينه ثم دعا إليكما زجاجة.

قالت الزجاجة:

ـ طلباتكما..

التفت المعطف إليك مستأذنا:

ـ ما رأيك في سماع حكاية " عندما يسرق الشرطي "..؟

أومأت إليه موافقا.

قالت الكأس الأولى:

ـ كان يا ما كان...

وقالت الكأس الثانية:

ـ ريح خفيفة، وشعر ناعم وشارع طويل...

ثم توالت الكؤوس...